وحي الآيات الأولى

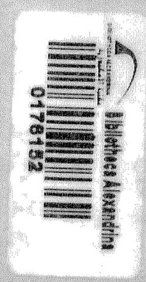
في تنزيل القرآن

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

قرآن كريم

بقلم

احمد نجيب برادة بك



مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــود ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

وحى الآيات الأولى

فى تنزيل القرآن

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

قرآن كريم

بقلم

احمد نجيب برادة بك

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

الاهداء

لقد شجعنى على كتابة هـــذه الرسالة
أعز أصدقائى ذلكم المفكر العظيم والمسلم الحميم .
حضرة صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا ،
الذى طالما أضاء على بثاقب فكره ، وأمدنى بأصالة
رأيه فرأيت أن أهديها لرفعته ليكون الفضل منه
ويعود اليه .

أرجو من القارىء الكريم أن يصحح الأخطاء الآتية فى نسخته :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١٢	ومباينها	ومبانيها
٢١	١٣	أو لو كان آباءهم	أو لو كان آباؤهم
٢٨	الأخير	مما فى بطونها	مما فى بطونه
٢٩	٢	أن فى ذلك لآيات	إن فى ذلك لآية
»	٤	واسلكى	فاسلكى
»	١١	لم يخلقوأ ذباباولو اجتمعوا له وأن	لم يخلقوا ذباباولو اجتمعوا له وإن
»	١٣	ألم ترى	ألم تر
٣٠	١١	وأنه لقسم	وإنه لقسم
»	١٩	إنا صببنا	أنا صببنا
٣٧	١٩	الاقتراحات	الاختراعات
٣٨	٢	مواردها	موادها
٣٩	١١	العلم بما	العلم بذلك بما
٥٢	١٤	ومن يؤتى	ومن يؤت
٥٢	الأخير	التدليل بأكثر	التدليل عليها بأكثر
٥٨	٦	محمود عباس	عباس محمود
٦٣	٩	تحورت	تحررت
٨٣	٥	المنطقة	النطفة
١١٨	٩	أوروبا	العالم
١٢٠	١٩	ومرسوما	وموسوما
١٢٧	الأخير	وقرآن كريم	وقرآن مبين
١٣٠	١٣	مع اختصت	مع ما اختصت
١٣٧	الأول	المجال الارتقاء	المجال لارتقاء

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة :

فضل من الله ونعمة أن شرح صدورنا للإسلام فاللهم زدنا حباً له وتمسكا به ، وكرم منه تعالى ومنة أن ملأ قلوبنا بالإيمان فاللهم زدنا تثبيتاً منه وعليه نحمده سبحانه حمد الشاكرين على فيض نعمائه وجزيل آلائه ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى اختاره من بين رسله خاتماً لأنبيائه ، فجاء بأقوم هداية وأكمل رسالة .

و بعد فهذا مقال فيما توحى به الآيات الأولى نزولا فى القرآن وهى :

« إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الأنسان ما لم يعلم » . وقد جال بخاطرى أن أتدبر هذه الآيات وأتوسع فى بحثها لأعرف المقصود منها ، ولماذا ابتدأ التنزيل بها فأشغلت بها فكرى . وأمعنت بالتأمل فيها بصيرتى و بصرى . وحلقت فى جوها لأكشف أوضاعها ومبانيها . وغصت فى بحرها أتصيد لآلىء معانيها . ولا غرو فان أولى آيات القرآن نزولا جديرة بالدرس ، و بالإفاضة فى البحث لأنها أول ما نطق به الدين الحنيف فهى سراجه ، وبها منهاجه هى بداية الهداية الاسلامية . والتوجيهات القرآنية فأهميتها وقيمتها وما لها من اعتبارات خاصة لا تخفى على ذوى الفطن .

ولقد وجدت أننى عند ما أقرأ القرآن متدبراً آياته أشعر بلذة روحية

لا تعادلها لذة . وأحس بمتعة نفسية ما أعظمها متعة . يشع على بصفاء فكر من سامى معانيه . وجلال مقاصده ومراميه . ولولا ما وجدته بنفسى من ضعف على القدرة فى تقليب نظرى فى جميع نواحى بيانه الرويع لكانت متعتى بالقرآن قد ألهتنى عن سائر متع الحياة ومسراتها كلها .

والبحث فى آيات القرآن الكريم وخاصة الأولى منها لا يقتصر على معانيها ومقاصدها فحسب بل يصح أن يتناول مسائل أخرى كثيرة . منها الوحى وكيفية حصوله وسيرة النبى عليه السلام وأحواله . وكيف قابل العرب كلام القرآن أولا . وماذا كان تأثيره فى نفوسهم . وما هو أسلوبه وترتيبه . ولماذا اختير العرب ينبزغ فيهم أولا نور هدايته . ويكون لبلادهم هذا الشرف من بدايته . ولماذا تختص اللغة العربية به وحدها . ولا يكون معها غيرها — ولماذا تأتى هذه الرسالة المحمدية فى ذلك العصر من الزمان . وغير ذلك مما فيه بيان لفضل القرآن . فطرقت كذلك أبواب هذه المواضيع مع الإيجاز .

وقد استعنت فى هذا المقال بأفكار بعض من أجلة العلماء واقتبست من كلام أفاضل الأدباء فلهم فيه فضل كبير . وقد قيل إن حسن اختيار الكتب نصف العلم . أرجو الله أن يجعل فى مطالعته لذة . ومن تدبر موضوعاته فائدة . وأن يكثر ممن يهتمون بشؤون القرآن لاستخراج كنوزه ومعرفة أسراره وعلومه ليعم نفعه الناس .

نزول القرآن وترتيب آياته وسوره :

ترتيب آيات القرآن وسوره فى المصحف ليس وفقا لترتيبها فى النزول فقد كان نزولها حسبما تدعو اليه الدعوة للإسلام وحاجة التبليغ وسبل الهداية

فكان نزولا منجما رهينا بالأحوال والحوادث فى أوقاتها وكان هذا من أقوم السبل التى مكنت مساوى عصر النبوة من معرفة معانى ظاهر الآيات والوقوف على أغراض القرآن ومقاصده القريبة وذلك بتطبيق القول على الفعل فتظهر عندئذ حكمة التنزيل ويسهل الفهم ويتثبت المعنى فى الذهن حتى اذا ما تقومت به نفوسهم واستنارت به أفكارهم وترقت عقولهم أمكنهم معرفة علومه وكشف أسراره واستنباط أحكامه والاستضاءة بأنواره .

وقد أراد الله أن يجعل القرآن كتابا للهداية . والكتاب كما لا يخفى يقتضى ترتيباً وأوضاعا يرتاح لها المنطق والعقل وتتدرج بالوجدان والفكر حتى يتم لقرائه الوقوف على معانيه ومقاصده — وهذا يقتضى ألا يتقيد هذا الكتاب بترتيب الأحوال والحوادث التى كانت من أسباب نزول الآيات ولا بأوقاتها فلم يقصد به أن يكون كتابا لسرد حوادث تصبح بعد تاريخية ولا يكون لها شأن كبير فى كل عصر ولا أن يتخصص بالعلوم أو الفنون وماإلى ذلك . ولهذا كان وضعه بأسلوب مؤثر فى النفس وبترتيب خاص يكون بهما كتابا للهداية القويمة « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فكان النبى عليه السلام كلما نزلت عليه آية أو سورة يبين للصحابة موضعها وترتيبها من سائر الآيات والسور وكان ذلك بما يوحيه الله اليه تمهيداً لكمال وضع هذا الكتاب الكريم . وبهذا الترتيب كانت تحفظه الصحابة رضى الله عنهم . وكان بعضهم يجمعه ويكتبه . وقد وجد غير قليل من الصحابة الموثوق بعلمهم وكفايتهم من قام بكتابة ما كان ينزل من الوحى ويحفظه وعرفوا « بكتبة الوحى » . ولا غرو فان تسمية الله تعالى اياه كتابا يدل على وجوب كتابته ، ثم إن اتخاذ النبى (ص) كتاباً له يكتبون بأمره كل ما نزل

فى وقته يدل على ذلك أيضاً . وأما سبب عدم جمع النبى (ص) له فى المصحف فظاهر لا يحتاج إلى إطالة الفكرة وهو احتمال المزيد فى أية سورة و بعد أية آية ما دام النبى (ص) حيا ونزول القرآن متواليا ولا يمكن أن يتصور أحد ولا أن يجد شبهة على كون كتابته فى صحف متفرقة هو مطلوب الشارع جل وعلا .

المصحف :

فى خلافة أبى بكر الصديق أمر رضى الله عنه بجمع القرآن فى المصحف جمعاً شاملا واختار لذلك زيداً بن ثابت وكان من كتبة الوحى وأكثر الصحابة حفظاً وجمعاً فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فأتم جمعه على أحسن وجه . وقد شمل المصحف كل ما نزل من الآيات والسور نجوما و بالترتيب الذى كان بتوقيف النبى صلى الله عليه وسلم . ثم فى خلافة عثمان رضى الله عنه أمر بكتابة المصحف من عدة نسخ بعد مراجعته على المصادر الموثوق بها بمعرفة جمع من الصحابة وتم ذلك وسمى بالمصحف العثمانى أو المصحف الأمام وتوزع منه على الأقطار الأسلامية . وقد أجمع هليه الصحابة علماءهم وحفاظهم وسائر المسلمين وقد كانوا هم حفظة الدين والقائمين بأمره . وكان التوفيق فى جمعه وكتابته لحفظه وصونه والعمل به آية من الآيات « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون » .

القرآن الكريم :

ولقد أدى القرآن الكريم للعالم رسالته وأذاع هدايته فصار رسول الدهر الخالد لهداية الناس فى كل زمان . « هدى و بينات من الهدى والفرقان » .
جاء داعياً للأخوة والمساواة والمعاونة بين جميع البشر يبث فيهم روح

الأجتماع و يحضهم على مكارم الأخلاق و يرشدهم إلى أقوم السبل فى المعاملات قال صلى الله عليه وسلم «أنكم لا ترجعون إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه» .

جاء معلماً عبقرياً يتحدث لأولى العقول الممتازة فيبهرهم ولمن دونهم فيبهجهم و يزيد فى ثقافتهم ولمن دونهم فيريحهم و يطمئنهم و يزكيهم و يعلمهم قال عليه السلام « تعلموا القرآن واقرأوه . فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان » .

جاء مفتياً يأتى بأصح الأحكام و بالأصلح منها لكل مقام هو المادة الأولى للشرع والحجة العظمى بيننا « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق » . أنزله الله متلبسا بالحق . مؤيداً به . مشتملا عليه مقرراً له. فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « و بالحق أنزلناه و بالحق نزل » .

جاء مشرعا يضع ما يكفل الحرية والعدالة للناس على اختلاف أجناسهم وعقائدهم وألوانهم ومنظما لأسس الحكومة الديمقراطية الصحيحة للأمم . بكل ما فى هذه الكلمة من معان .

جاء حكيما لا ينطق إلا بالحكمة وفصل الخطاب مبيناً المسببات والأسباب . هو قاعدة الإسلام. وقطب الأحكام. وآية الرسالة. ودليل صدق الدين هو وحى الله « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون » .

جاء مناراً لذوى العقول والفهوم يبين لهم الغرض من الحياة وكيف يكون السير فيها والسلوك .

جاء مسجلا لصالحات الأمم ومبشراً لمن يأتى بمثلها بالنعيم المقيم وحسن المآل . ومبينا لمناقم الأقوام الفاسدة. ومنذرا من يحذو حذوهم بسوء الحال .

جاء مشكاة لنور الله ليضيء سبيل المتقين وتسطع شمسه هداية للمؤمنين . « نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

صار كعبة يحج إليها المسترشدون وملجأ للضالين والتائهين ومنهلا عذباً سائغاً للشاربين . قال عليه السلام « تركت فيكم ما أن تمسكتم به ان تضلوا كتاب الله وسنتي » . أوكما قال عليه الصلاة والسلام . « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله المتين والنور المبين والشفاء النافع . عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد » .

جاء مصلحاً يدلى بالأفكار الصالحة والأمور النافعة هو عقل للأمة يدرك به ما تعوزه مجموعها وما يطلب لأفرادها .

صار معشوقا يهواه طلاب الحكمة ومحبو الأيمان .

صار مطربا لرغاب المكارم وجوامع الكلم والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

جاء أكبر موسوعة للمعارف لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاطت بها « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » وكما قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

هو آية الله الكبرى المعجز للخلق بتعليمه وهدايته وأسلوبه وعبارته . معنى ولفظا . وفصاحة ونظما . بالإجمال والإيجاز الذى توالت فيه وجوه الإعجاز نور فوق الأنوار وحكمة كاملة ونعمة للأنام شاملة .

هو كتاب الإسلام هدى للمتقين « إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ،

لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » .

كتاب يساير كل زمان وهاد لأهل كل مكان يمضى مع الفكر فى تطوره والعقل فى تدبره . والقلب فى تعطفه . والعلوم فى سيرها . والحياة فى جهادها . والحضارات فى تقدمها ورقيها . « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

التأملات الأولى :

بدأ العزيز الحكيم تنزيل القرآن الكريم بالأمر بالقراءة فقال فى الآية الأولى «اقرأ باسم ربك » ثم كرر الأمر فى الآية الثالثة بقوله . « اقرأ وربك الأكرم » . وكرر أيضا كما ترى كلمة «الرب» فيهما وكلمة الرب تحوى فى طياتها معنى التربية . ولم يذكر فى الآيتين معمولا ظاهراً للقراءة إذ لم يقل ماذا تقرأ . واكتفى فى كلتيهما بذكر وصف للرب . فى الأولى . بالذى خلق . خلق الإنسان من علق . وفى الأخرى بالأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . بالتنويه فى الوصف الأول بالخلق وفى الوصف الثانى بالعلم وعلى هذا فان الآية الأولى تفيد أنك تقرأ فى كائنات الوجود . وتفيد الآية الأخرى أنك تدرس العلوم المسطورة وتطلب منها المزيد . ثم أن كلمة « علق » فى آية «خلق الإنسان من علق» تتضمن معنى العلاقة والارتباط فهو قد خص الإنسان بالذكر من بين الكائنات وأبان أنه تعالى جعل مناط الإنسان العلق أى الروابط بأنواعها من اجتماعية وطبيعية واقتصادية وغيرها ليجعلك تهتم بدراسة تلك الروابط وما يترتب عليها من حقوق الناس وواجباتهم اهتماماً خاصاً .

هذه هى أولى التأملات فى هذه الآيات . فلما فكرت فيها بهرتنى بمعانيها الدقيقة الكثيرة التى تواردت على ذهنى و ببعض وجوه بلاغتها التى اهتدى اليها علمى .

وفى الحق أن كل من يتأمل فى هذه الآيات الكريمة ويتدبر معانيها يعجب كل الإعجاب . حيث جعلها الله بداية للهداية الإسلامية لما أفادته من عظيم المقاصد السامية فقد دلت على أنه سبحانه وتعالى أول ما عنى به من أمر الهداية فى الإسلام هو بالتوجيه لرقى العقل الإنسانى وتوسيع دائرة التفكير لإحاطته بالمعارف القيمة بدراسة كائنات الخلق دراسة وافية وفى هذا تقويم لشخصية الإنسان تقويماً صحيحاً وتثقيفه ثقافة عالية ولما فى ذلك أيضاً من تفتيق ذهنه وتنوير فكره وتربية ملكة التأمل والملاحظة فيه وتعويده التروى والتعقل واستنباط المعلومات من تدبر هذه الكائنات ودرسها للوصول إلى معرفتها على حقيقتها تثقيفاً راقياً لا تثقيفاً ساذجاً لم تحنكه التجارب أو محصوراً بحواجز وهذا هو معنى الآية الأولى « اقرأ باسم ربك » وأما الآية الثانية وهى تدخل أيضاً تحت الأمر بالقراءة والدراسة وهى قوله « خلق الإنسان من علق » فقد بين بها سبحانه أن طبيعة الإنسانية بل وجودها إنما هو بالروابط والعلاقات بأنواعها فأشار بذلك إلى وجوب دراسة نظام المجتمع البشرى وطبيعته من جميع نواحيهما .

كما وجهه سبحانه نحو العلوم المؤيدة لصحة المعارف والمؤدية إلى تنظيم طريقة تحصيلها والتوسع فيها وتسهيلها . للإفادة من ثمرة العقول البشرية التى تنضج وتنتج على تعاقب العصور وتوالى الدهور وقد جعلها الله إرثاً عظيما للإنسانية متزايد الثمرات الغالية قطوفها للمجدين دانية . فهو سبحانه قد هيأ

للإنسانية بهذه الآيات الطريق الذى تسير فيه نحو الكمال . و بعبارة أخرى أن القرآن الكريم بدأ الهداية الإسلامية بثلاثة من أهم الأمور للحياة الراقية السعيدة وهى ترقية العقل والمزيد من العلم واحترام الروابط الإنسانية ولم يبدأ الهداية الإسلامية ببيان عقائدها أو بتقرير مراسم عباداتها وذلك لأن الشخصية الإنسانية لا يتم صلاحها بمجرد تلقين عقائد دينية ولا القيام بفروض تعبدية فان النفس اذا لم تقوم أولا من هانيك النواحى وترتقى بالمعارف القويمة والعلوم الصحيحة وتعرف ما يجب لحياة الإنسان من الروابط الاجتماعية والطبيعية المتينة فتعتدل بأولئك جميعا على صراط سوى لا يؤمن أن يتحقق لها طيب الحياة وصلاح العقيدة و إدراك القصد من محتويات العبادة وتبقى الإنسانية كما كانت قبل الإسلام فى حالة الجاهلية الأولى وفوضاها وتقاليدها الوثنية ، ولذلك كانت بداية الهداية الإسلامية من لدنه تعالى هى هذه الآيات الكريمة . فانظر إلى علوية القرآن وسموه من أولى آيات نزوله . آيات ترفع الإنسانية إلى أسمى الدرجات وتفتح لها أبواب السعادة وتقلدها مجد الحياة . ولقد كانت هذه الآيات البسيطة فى ظاهر ألفاظها ومعانيها كذلك بداية عظمة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام إذ دلت على أنه تعالى جعل نبوته ورسالته قائمة على قواعد العقل والعلم فى ثبوتها وفى موضوعها . فمن يتدبر معانى هذه الآيات الأولى لا يلبث أن تملك عليه نفسه و يجد فيها وحدها ما يكفيه لمعرفة عظمة القرآن وعلو شأنه فيقف خاشعا من خشية الله وجلاله معترفا بعجز الإنسان — مهما كبر عقله وعظم قدره — عن أن يأتى بمثل ما جاء به لنظام الحياة وسعادتها « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

أجل إن أكبر الناس عقلا وأوسعهم قدرة لو كان فى عظمته ومكانته مثل الجبل فى ضخامته وصلابته إذا ما أدرك معانى آيات هذا القرآن الكريم لخر صعقاً أمام النور والدليل .

مستقى الهداية الإسلامية :

ألا يدهشك أن تجد أن أولى آيات القرآن هذه مع إيجازها وقلة ألفاظها قد أوضحت بأجلى بيان أن المولى عز وجل جعل مستقى الهداية الإسلامية من البداية من هذه الينابيع الثلاثة الصافية — أولها التأمل والتفكير فى خلقة الكائنات (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وهـذه هى فلسفة التأمل والملاحظة أو التربية التجريبية . وثانيها هو العلم المسطور بالقلم (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) وثالثها مراعاة الروابط الإنسانية «خلق الإنسان من علق» فهذا الإرشاد الإلهى لم يعهد من قبل فى كتاب سماوى أو غير سماوى ولعله تعالى أرجأه إلى أن تبلغ الإنسانية رشدها وكمال استعدادها الاجتماعى فلم يرد هذا الارشاد إلا فى القرآن الكريم الذى اختتم الله به الدين وقال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وان الدين الكامل تقره قواعد العقل ويوافقه العلم .

أدوار ترقى العقل البشرى :

غير خاف أن الله تعالى لم يجعل الإنسان من بداية خلقه كامل المدارك وعارفا بشئون حياته بل أنه تعالى تدرج بالإنسانية من حالة بدائية إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن من رقى العقل وعظم الشأن .

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن العقل الإنسانى تدرج فى ثلاثة أدوار :

الدور الأول :

هو الدور اللاهوتى — كان فيه العقل الإنسانى يفسر الأسباب ومسبباتها بتدخل الآلهة — ولا ريب أنه ما دام الإنسان بهذه الذهنية فلا سبيل لقدرته على إدراك العلم ولا معرفة الحقيقة ولا إلى ارتقائه مادياً أو معنوياً . فقد كان الإنسان خرافياً ذا عقلية صبيانية يرجع كل شىء إلى الخوارق .

الدور الثانى :

كان دور الاشتغال بالبحث فيما وراء الطبيعة ولم يعد يؤمن فيه بأن الخوارق هى سبب الحوادث المحيطة به — غير أنه فى هـذا الدور قد أضاع وقته وقواه فى تيه النظر العقيم والتخمين والتساءل عما هو مجهول فى كنهه ومحجوب عنه فى جوهره وليس فى استطاعتــه كشفه وذلك لأنه بسبب تأثير بهرج الطبيعة عليه بدأ فى بحث ما استتر عنه من الحقائق وراء الظواهر المحسوسة قبل وقوفه على الظاهر منها الواجب عليه معرفته أولا وقبل كل شىء .

ولــكنه على كل حال تخلص فى هذا الدور من عبودية الخوارق واستعدلفهم الحقائق. ولا ريب أن كانت تعاليم الأنبياء عليهم السلام متدرجة مع تدرج العقل البشرى وكانت تعاليم كل نبى متجاوبة مع حالة قومه الاجتماعية والعقلية .

الدور الثالث :

هو الدور الحسى والعلمى الذى زالت فيــه النظرات الوهمية وحلت محلها الملاحظة والتجربة والاستقرار ثم القواعد الكلية الشاملة واتخاذ الحقائق أساسا مكينا لبناء صرح الحياة فأتيح للناس فى هذا الدور أن يعرفوا من الطبيعة أسراراً

تمكنهم من التغلب على الأحوال المادية وعلى شطر كبير من الأحوال المعنوية للحياة الانسانية .

فى هذا الدور بلغت الإسانية رشدها الاجتماعى وسار العالم فى سبيل النظام وتهيأ للارتقاء بوجه عام وهذا الدور هو الذى ابتدأ به الأسلام ودعا فيه إلى الملاحظة والتجربة والاستنباط وتعرف الحقائق والإرتقاء بالعلوم فتكفل بهداية عامة عالمية مستمرة تحتوى عاملين أساسيين انظام الحياة هما الثبات والاستقرار من جهة والتجدد من جهة أخرى ، وذلك بوحى من الله تعالى أنزله على خاتم أنبيائه عليهم السلام بدأه بآياته « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . فبلغت الانسانية بهذه الهداية أوج الرقى وامتاز من قرأ على من لم يقرأ بعلمه وفضله فالأسلام قد وضع النهج القويم وهدى إلى الصراط المستقيم « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . هو دين للانسانية جمعاء يدعو إلى الرقى الدائم عقلا وعلما و إلى الأخوة بين الناس كلهم

انتصار القرآن للعقل والعلم :

فالقرآن من بدايته قرر اعتماد الدين الإسلامى على العقل الانسانى ووجهه إلى دراسة الكائنات بتأمل وحرية فكر و إلى الاقبال على العلوم وطلب المزيد منها .

فلا يكتفى الاسلام بأن يضمك إلى صفوفه عن طريق الوراثة و إن كان قلبك قد تشرب بحب الدين بينما ذهنك خال من فهم معانيه وأغراضه وادراك فلسفته الالهية التى تنساق فى كل ثقافته وآدابه وأحكامه . بل يطلب منك

أن ترسم بنفسك على صفحات ذهنك نتائج ما تشاهده فى صحائف هذا الكون البديع وما تحصله من الدراسات العلمية القيمة . و بعبارة أخرى يريد منك أن تعنى . بتربية نفسك تربية علمية وعمليــة وأن تغذى عقلك وتنميه بالمبادىء الصحيحة والمشاهدات التجريبية بصفاء ذهن وحرية فكر (اقرأ باسم ربك الذى خلق) و يريدك أن تكون واسع الاطلاع ملما بالعلوم بأقصى ما يستطاع (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم) .

ولم نجد كتاباً أو ديناً قبله قام بهذه الهداية فهو أول ما آخى بين العلم والدين و بين العقل والدين أخاء لا تنفصم له عروة ولا تنحل له وشيجة وكان لذلك أثره الكبير فى تكوين العقل الاسلامى والعقيدة الاسلامية فجعل فى ميدان الحنيفية السمحة متسعاً لحرية الأفكار واختلاف الأنظار بخلاف الأديان الأخرى فقد حجر أصحابها على حرية التفكير فى المعتقدات وحرموا المناقشة فيها فصدوا أنفسهم والناس عن كل تفكير عقلى حر واعتبروا أن ما وجدوا عليه أباءهم أسراراً لأهوتيه وأموراً فوق طاقة البشر ادراكها « أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ولم يكن يجرأ عالم أو مفكر على أداء رسالته حتى لقد جعلوا لرؤساء الكنيسة سلطانا على الحياة الأخرى فكانوا يبيعون تذاكر للغفران من الذنوب بالنقد « indulgences » أو تذاكر لدخول الجنة بغير حساب ومن لم يصدقهم يكون بعيداً عن الايمان كافراً بالله (أو الأب الذى فى السموات) مستحقاً للتعذيب فى الدنيا قبل الممات .

وحين اصطدم العلم والعقل بهذه المعتقدات السخيفة واشتدت المنازعة انتهى الأمر برؤسائهم إلى تأسيس محاكم التفتيش وغيرها من الأعمال الوحشية فكانوا يحكمون بزندقة كل من يخالفهم رأيا أو لم يصدق لهم قولا ولو كان من

أجلة العلماء أو مفكرا حرا لا يتقيد بتفكير الغير . وأعملوا فيهم التقتيل والتعذيب . وكم ذهبت أرواح بريئة فى سبيل المبدأ أو لمجرد المخالفة فى معتقد . وها هى أحكام تلك المحاكم الموسومة بعمل الايمان (auto dafe) وما هى إلا من عمل الشيطان . كم أعدمت حرقا وذبحاً . وهاهى ذه مذبحة سان برتلمى فى أغسطس سنة ١٥٧٢ التى دامت فى فرنسا ثلاثة أيام متوالية ذبح الكاثوليك فيها البروتستانت (Huguonots) اتباع كالفين وهيوج فى أثناء عيدهم وغير ذلك من الفظائع والاضطهادات مما شوه وجه المدنية الغربية — وكان من أثرهذا التعصب الدينى والجمود العقلى التضحية فى أوروبا بأكثر من ثلاثمائة ألف من أجلة العلماء فى سبعة قرون ونصف قرن أى من حوالى سنة ١٠٨٠ إلى حوالى سنة ١٨٢٠ أمثال دندولو وجاليليو وباتريزى وكامبانيلا وغيرهم غير أولئك الأبرار من مسامى الأندلس وغيرهم والتاريخ شاهد عدل على سوء ما ارتكبوه وبشاعتة وفظاعته « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » ولم تنته تلك الفظائع إلا ببزوغ نورالحرية التى كانت من آثار الثقافة الإسلامية أخيراً فى أوروبا وهو ما قرره بعض المنصفين من علماء أوروبا وأمريكا الاجتماعيين

طعن علماء الغرب فى معتقدات أممهم الدينية :

وقد وقف بعض من علماء الغرب وفلاسفتهم أخيرا على الانحراف فى المعتقدات الدينية عندهم فاستنكروا ما مضى من ارتكاب أممهم ورؤساءهم من الفظائع الوحشية باسم الدين وطعنوا على دينهم بأن العقل والدين ضدان لا يجتمعان وأن العلم والمعتقد خصمان لا يتفقان وكثيراً ما صرح علماء القرن التاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه مرتبط ببقاء عامة الناس

سذجا — وأن العلم إذا ما نشر لواءه على العامة انهار الدين كما ينهار كل ماليس له أساس راسخ يقوم عليه — وهكذا صار الدين فى نظرهم لا يحتمل الدوام والبقاء حيث لا يرتكز على حقيقة أو أدلة مستقاة من العقل والعلم .

ويجمل بنا أن نذكر هنا أقوال أحد العلماء الغربيين بنصها وهو العلامة جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى المشهور حيث قال « إن الدين والعلم طريقان تجرى فيهما حركة الأنسان وليسا من أصل واحد » . وقال « إن العلم يقرر الحقائق لكن المعتقدات تمثل الرغبات ولهذا فضل الناس المعتقد على العلم » وتمادى فى ذلك وقال « الدين يكسو الخيال المتولد عن الرغبة صورة الشىء الواقع بينما العلم هو الذى يوجد الحقائق مجردة عن الرغبات » وقال « الدين التزام لا استدلال فاذا ما بحث الناس فيه فذلك لكونه ضعف ومال إلى الزوال » ثم زاد فى استنكاره معتقدات قومه التى لا يستسيغها العقل ولا يتطرق اليها الفهم فقال « لا يعوق انتشار المعتقد ما فيه من الخطأ والهذيان لأنه ليس مبنياً على النظر والاختبار » وهو لا شك ينوه فى ذلك بأمثال عقيدة التثليث وألوهية عيسى وبنوته لله وبالاعتراف وما يتبعه وبالطعام المقدس وبالرهبنة وأمثالها من تعاليم الكنيسة التى شوهت دين المسيحية الحق فهذه المعتقدات والأعمال ما هى إلا مجموعة من أساطير ممسوخة عن الوثنية القديمة وتقاليد أدخلها رجال الكنيسة فى الأزمان السابقة على ظهور الإسلام وتنويره للعقول . وما هى من الدين فى شىء .

تلك بعض من مبادىء العلامة جوستاف لوبون وآرائه التى نشرها فى مؤلفاته العديدة والتى جمعها فى كتاب خاص عربه المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا

بعنوان (جوامع الكلم) ولا ريب أن هذه الآراء لا تنطبق على دين الإسلام وهى بالنسبة له من سواقط الكلم .

هذه المعتقدات والتقاليد قد حرمت الكنيسة على الناس مناقشتها والتفكر فى صحتها أو فسادها وقررت مبدأ « آمن ولا تسأل » . قد عطلت رقى الفكر وأعاقت تقدم العلم زمنا طويلا إلى أن تأثرت أوروبا بتعاليم الاسلام ودرست مدارسها مؤلفات فلاسفته وعلمائه ولا سيما ابن رشد الذى عملوا عندئذ على اعدام مؤلفاته وشروحها وعدوا من توجد عنده أو يقرأها من أشد الكفار مستحقى الاعدام والتعذيب ولكن على الرغم من كل ذلك قد ظهرت النهضة العلمية فى أوربا فظهر العلم بقوته و بدد شمل هذه المعتقدات بل أخمد أنفاسها .

وقوف بعض علماء الغربيين على فضل هداية القرآن :

وقد توجهت أنظار أمثال العلماء جوستاف لوبون وأرنست رنان وجولد سيهر وكوندوسه واميل درمنجهام ولوثروب ستودارد وولز وغيرهم إلى دراسة تاريخ الإسلام والوقوف على تأثير ثقافته فبهرهم علوها وفضلها وكتب جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب يقول إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر واستقامة الدين ثم تمنى أن لو أكمل المسلمون فتح أوروبا واستعمارها قائلا « إنهم كانوا بلا شك يصلحونها و يسعدونها » و بين كذلك وهو ما أثبته التاريخ — كيف كان علماء الإسلام معلمين لأوروبا زهاء خمسمائة سنة أو تزيد .

ووصف العلامة أرنست رنان الإسلام فى كتابه تاريخ اللغات السامية . « بأنه انقلاب مفاجىء فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى خارق للعادة

ولم يسبق له مثيل صار به العرب أمة فاتحة ومبدعة بعد أن لم يكن لهم مكان في التاريخ » .

وكتب العلامة الاجتماعي لوثروب ستودارد في مقدمة كتابه حاضر العالم الإسلامي « كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الإنسان . إذ ظهر الإسلام في أمة منحطة الشأن فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف . وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحقب والأجيال . ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام وبانياً عالما حديثا مترامي الأركان هو عالم الأسلام » .

ووصف العلامة كارليل محمداً عليه السلام وأعماله بأحسن الأوصاف وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم . وهكذا فعل غيرهم وسينبلج الصبح لكل ذي عينين بعون الله .

توجيهات القرآن :

فما أحسن ما جاء به القرآن الكريم من الأمر بالنظر والتعقل في موجودات الكون وتدبر طبيعتها وبحث شئون الإنسان والإقبال على العلوم وذلك من أول آيات نزلت منه وأعاد ذلك بعدها مراراً وتكراراً تفصيلا وتبياناً لما أجمله في هذه الآيات الأولى بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فلا تقرأ منه قليلا أو كثيراً إلا وتراه يعرض عليك الأكوان وما فيها ويرشدك إلى استخراج أسرارها وما بها من كنوز العرفان ويحضك على استيضاح كنهها ونواميسها وأنظمتها وأسباب تآلفها وتجاذبها وتفرقها وتناسقها واستجلاء حكم اتفاقها

واختلافها وقد قال بعض علماء التفسير أن فى القرآن الكريم من آيات العلوم الكونية ما يزيد على سبع مائة وخمسين آية . وهذه مع الإكثار أيضا من ذكر الاجتماع والاخلاق والشريعة وغيرها . آيات هى بجملتها وتفصيلها مرآة صافية لروح الهداية الإسلامية فى معلوماتها ومعارفها . فيقول سبحانه وتعالى فى سورة البقرة « إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » . فهذه الآية تكاد تلفتك إلى مبادىء جميع العلوم الكونية وفى خلق السموات والارض آيات بينات كثيرة الأنواع يدهش المتأملين بعض ظواهرها فكيف حال من اطلع على ما اكتشف العلماء من عجائبها الدال على أن ما لم يعرفوه أعظم مما عرفوه منها وهكذا سائر ما ورد فى الآية الكريمة .

وفى سورة آل عمران يقول تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

ولقد أحسن بعضهم بقوله فى ذلك « إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استيقظوا قلوبهم بالحكمة » . وقد ورد فى الاثر أن بلالا أتى كعادته يؤذن النبى بصلاة الصبح فوجده مضطجعا على جنبه يبكى فقال يا رسول الله ما يبكيك . فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة . « إن فى خلق السموات

والارض واختلاف الليـــــل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله ... الآية » ثم قال « ويل لمن يقرأها ولم يتفكر فيها » . وهكذا أفصح النبي عليه السلام عن مرامى القرآن ومقاصده .

ويقول تعالى فى سورة الأنعام « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » . وهذه الآية تشير فوق ما فيها من معان أخرى إلى وجوب الرفق بالحيوان . سأل عبيد الله بن زيادة بعض الصحابة عن قول رسول الله فى الرفق بالحيوان فنادته بنت بشر وقالت يا هـذا إن الله يقول « وما من دابة فى الأرض » وتلت الآية واستدلت هذه الصحابية بهـا على وجوب الرفق والرحمة بالحيوان وأنه تعالى يحاسب الناس على ظلمهم لها كما يحاسبهم على ظلم أفراد الأمم ويقول تعالى « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى » . ويقول « وهو الذى جعل لـكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلـكم لآيات لقوم يؤمنون » .

وفى سورة يونس يقول سبحانه وتعالى « هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحســاب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

ويقول فى سورة الرعد « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا

ومن كل الثمرات جعل فيهـــا زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . وقال تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . فتأمل إلى مقارنة المعنويات بالماديات بالأمثال فى هذه الآيات .

ويقول فى سورة الحجر « وقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » ويقول « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » ثم يقول « وأرسلنا الرياح لواقح وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .

ويقول تعالى فى سورة النحل « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » . ثم يقول تعالى « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم » وبعد ذلك يقول تعالى « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها

من بين فرث ودم لبنــا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا أن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات واسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . ثم يقول تعالى « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جــو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

وفى سورة الحج يقول تعــالى بعد وصفه خلق الإنسان « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . ثم يقول تعالى « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لم يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

ويقول فى سورة النور « ألم ترى أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خــلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكادسنى برقه يذهب بالأبصار . نقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير » .

ويقول فى سورة لقمان « خلق السموات بغير عمد ترونها والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة . وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها

من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

وقال فى سورة الشورى « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » وقد كان يظهر انا إن.هذا من أخبار عالم الغيب لأننا لا نرى ما فى كواكب السماء ولا ندرى مافيها من الحيوانات إذا كان ثمت بها منها . لكن أهل العلم بالهيئة الفلكية من المتأخرين قرروا إن بعض هذه الكواكب كالمريخ فيه ماء ونبات فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان بل فيه امارات على وجود عالم اجتماعى صناعى كالإنسان فهل سيأتى الوقت الذى يجتمع فيه أهل هذا الكوكب أو مثله بأهل الأرض . هذا أمر لا يعزب عن قدرة الله « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » .

ويقول فى سورة الواقعة « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم » وهذه الآية أيضاً ترشدنا إلى البحث فى علم الهيئة الفلكية لمعرفة موقع النجوم وتأثيره بالنسبة لها وفعلا هذا البحث قد أثبت أن الأرض فى دورتها حول محورها لها شأن عظيم فهى تدور أيضاً حول الشمس فى فلك لكن محور الأرض فى ذلك مائل على خط الفلك وليس عموديا عليه وهذا الميل كان آية اختلاف النهار والليل واختلاف الفصول واختلاف الحيوان والنبات أو قل أن له أكبر الأثر فى جميع نواحى الحياة فموقع كل نجم له فى الخلق شأن أكبر من أن يقسم به أو « إنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ويقول فى سورة عبس « فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » .

وفى سورة الغاشية يقول تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت و إلى السماء كيف رفعت و إلى الجبال كيف نصبت و إلى الأرض كيف سطحت» .

هذه آيات القرآن المرشدة إلى آيات الاكوان . الآيات الثابتة الدائمة تبينها آيات القرآن منبهة لها ومعظمة .

هذه الآيات الخاصة بطبيعة الكائنات وغيرها كثيرة فى القرآن وهى غير ماورد بشأن الإنسان وكذلك ما جاء من باب ضرب الأمثال للعظة والاعتبار وغير ذلك و إنما أوردنا هذه لمناسبة أية « اقرأ باسم ربك الذى خلق». لأن فيها تفصيلا وتبيانا لها ولا ريب أن فى اكثار القرآن من ذكر شىء دليل على عظيم شأنه ووجوب الإهتمام به وقد بين سبحانه ما يكون فيه التفكير أو التعقل أو إجراء البحث العلمى وهكذا بقوله لقوم يتفكرون أو يعقلون أو يعلمون فتأمل إلى هدايته و إرشاده وهو لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا هدانا اليها وأفادنا بها . قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة و بشرى المسلمين » (س ١٦ — أية ٩٠) .

القراءة فى الكائنات وتحليل كلمة اقرأ :

وكأنما تلك الآية التى نزل بها الوحى فى البداية . « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . ولم تزد ألفاظها على خمسة . جاءت مبشرة بفيض تلك الآيات الجليلة التى حواها القرآن الكريم للتوجيه لدراسة الطبيعة وموجودات الكون فهى إجمال بديع لوسائل التربية التجريبية والتعليم والإرشاد التى تكفل القرآن بتفصيلها بعد هذا الإجمال بآيات بينات تحض الإنسان على النظر والتدبر فى الكائنات و بديع مافيها بعين الباحث المدقق لمعرفة طبيعتها ونواميسها وللافادة بتسخيرها.

والقراءة الصحيحة سواء فى صحائف الكون أو فى غيرها تقتضى

النظر وأعمال الفكر لفهم ماتقرأ واستبانة حقيقته . وهى أيضا تجلو صفاء الذهن وتربى ملكة التفكير السليم وتعود على الفهم الصحيح وتوجد القدرة على الاستنباط والاستنتاج وتؤدى لمعرفة الأشياء والعلم بها علما تاما فأنت ترى أن القراءة المقصودة من هذه الآية « اقرأ باسم ربك الذى خلق » أو هذا الفعل الواحد . « إقرأ » حوى فى طياته خمسة أمور دقيقة . أو أن عناصره عند التحليل خمسة وهى النظر والفكر و إدراك كنه الشيء وفهمه واستطلاع أثره وتمام معرفته

النظر :

أما النظر فهو أول حركة مادية أو الفاتة ذهنية من الحركات التى حواها فعل « اقرأ » فله فلسفة وله مباحث تتعلق بالمعرفة . منها مايخص الناظر ومنها مايخص المنظور وغير ذلك من الأحوال والأمور فليس نظر العالم للأشياء كنظر الجاهل . فالكون فى نظر الجاهل الغافل عن دقائق الأشياء ضيق الرقعة محدد المسافة ولكنه فى نظر العالم البصير والمتأمل القدير متسع لا حد له وممدود إلى ما لانهاية . وكلما والى النظر اليه والتأمل فيه قرب منه مابعد عنه . ثم هو يجد الكون مرآة مجلوة للناظرين وآية كاشفة للمتبصرين فالنظر اليه باب للاستدلال ومدرجة للتفكر وبالتأمل والتفكر والتدبر يكون الوصول لمعرفة الأشياء على حقيقتها وطريق الاستفادة منها ثم أنه بإمعان النظر يتثبت الإنسان ويكوّن لنفسه الرأى السديد فيبعد عن التقيد والتقليد مثارى الحيرة والترديد .

عجبت لعين لا تفوز بالنظر إلى هذا الكون . فتحرم صاحبها من التمتع بأجل نعمة فى الوجود فإنها الرابطة بين كل شاهد ومشهود . العين ما أعظم قدرتها وأحكم خلقتها إذا قامت بوظيفتها .

العين وهى صغيرة فى حجمها تسع الوجود بأرضه وسمائه

و بالنظر فى الـكائنات إنما يوفى الإنسان غريزة الاستطلاع المخلوقة فيه. فالمولى سبحانه وتعالى لم يطالبه فى بداية الهـداية بأكثر مما هو فى استطاعته. ومقدوره بأن يبصر ذات المنظور كلياته وجزئياته ثم يبدأ بالتفكير فى حالته لمعرفة حقيقته وحكمه ونظامه وعلى حد قول ابن عبد ربه « إن عقل الغريزة سلم لعقل التجربة » .

ثم أنه لإدراك كنه الشيء ومعرفة أحواله يقتضى رؤيته فى موضعه ووضعه الحقيقيين بالنسبة لسائر الأشياء . وأن لا يقف النظر عند الجزئى مستقلا لمعرفة حقيقته وحده . بل يجب أن يجول النظر فيه وحوله لأجل الكشف عن النواميس التى تربط هذا الجزئى بباقى ماحوله وما هو مرتبط به من الـكائنات الأخرى.

أما النظر فى الأشياء من الناحية الظاهرة السطحية فيصح الاكتفاء بها فقط للفكرة الجمالية و يرضى الناظر بالشيء الواحد وكأنه كل مستقل محدد فيتمتع بنظر صورته هكذا لأنها تمثل له شيئـا متميزا له خصائصه يعجب بجمال صنعه والدقة فى انتظام تركيب أجزائه ، كما قد يكون النظر لدواع عاطفية .

وعلى هذا فالنظر إما أن يكون للمعرفة والعلم وهذا نظر العقل للبدء بالتفكير والفهم . و إما للاعجاب و إمتاع المشاعر والحواس بالجمال وهذا نظر القلب . و إما للحب أو الاشفاق وهذا نظر العاطفة . وكل هذه تدخل فى نطاق النظر الذى يتضمنه فعل « اقرأ » أو هو أول عنصر من عناصر هذا الفعل .

الفكر :

وأما الفـكر وما أدراك ما الفـكر هو ثانى العناصر لفعل (اقرأ) وهو على

حد قول الإمام الغزالى « مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار هو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وقد عرف أكثر الناس فضله ومرتبته . لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم البعض فيماذا يتفكر ولماذا يفكر وما الذى يطلب ؟ أهو مراد لعينه . أم لثمرة تستفاد منه » وقد كفلت آيات الذكر الحكيم بيان كل أولئك لمن يتدبرها ويهتم بدراستها . والبحث فى الفكر كما لا يخفى من أهم مواضيع علمى النفس والأدب (Psychology and ethics) .

بالتفكر تصير العين مبصرة بعد إن لم تكن مبصرة و به تنتعش الحواس وتنهض الأعضاء للعمل . فالفكر معلم ومربى ومكون ومرق .

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

الفكر زناد نور المعرفة ضياء للبصر وضياء للفؤاد . به أنت ترى ما لم تكن تراه و به تميل إلى ما لم تكن جوارحك إليه تميل فثمراته غير متناهية ورب فرد أفاد بفكرة أفراداً أو أمة وقد يصيب بها خيراً للعالم أجمع ، أنظر إلى جلال الاختراع وفائدة المخترعات أليست كلها بنات التفكير فما بالكم إذا كثر المفكرون منكم ممن يعملون بهدى القرآن وتوجيهه . قال وهب بن منبه « ما طالت فكرة أمرء قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل » .

والعالم حين يقترب من آيات الله الكونية بالتأمل والتفكر يقترب اقتراب المنقب عن سر مودع فإذا وفق وانكشف له السر فقد انتقل بالعلم من كسب إلى كسب ومن كشف سر بعد سر وكنز بعد كنز (مخترعات ومكتشفات) فما أجل توجيه القرآن الحكيم وإرشاده .

إن التأمل والتفكر فى مقدورك وأنت تملكهما فعندك أداة الكسب للمعرفة

والعلم وعندك آلة العمل فأحسن الصناعة وأتقن استعمالها واستثمارها يأتيك النفع من كل جانب . التأمل والتفكر هما المبدأ والمفتاح للخيرات كلها .

رقى الأمة أو انحطاطها بوزن تفكير أبنائها :

ولا يخفى أن الذى يعين درجـة الحضارة والرقى فى أمة ما إنما هو بوزن تفكير أبنائها السليم . وما يعين درجة انحطاطها وتأخرها هو التفكير المرتبك السقيم .

وأيضا بإعمال الفكر مايشحذ القريحة ويدربها على حل المشكلات العويصة ووضع القواعد الصحيحة وهذا زيادة على غاية التفكير السامية . وفى حياة الناس مشكلات كثيرة : إجتماعية وسياسية وغيرها فتدريب الناس على النظر والتروى فى الأمور مما يربى نفوسهم ويقوى عقولهم على حلها والتغلب عليها بالطرق القويمة الناجحة . فلهذا العنصر الثـــانى لفعل « اقرأ » وهو التفكر فوائد ما أكثرها عددا وأعظمها قدرا .

ادراك كنه الشيء، أو فهمه واستطلاع أثره أو الطريقة التجريبية فى العلم والتربية :

إن التعبير الذى جاءت به هذه الآية « إقرأ باسم ربك الذى خلق » يفيد إن الله سبحانه وتعالى جعل مما خلق مجالا للنظر والتفكير والادراك والاستطلاع وبالتالى إفادة المعرفة إذ أنه تعالى لو قال أنظر باسم ربك بدلا من قوله إقرأ لما شمل الفعل فكرة التأمل والفهم والتدبر والوقوف على حقيقة المخلوقات ونظامها وسننها وأثرها واستنباط مافيها ومعرفة طرق تسخيرها فكل ذلك يكون نتيجة للقراءة الصحيحة لا لمجرد النظر وكذلك لو قال « تأمل أو فكر أو تفهم أو

تحدث أوتكلم » ففى كل كلمة من هذه شيء من المعنى المراد ولـكن ليس فى أى منها كل المعنى أو المعانى المقصودة بل حتى لو وضعتها كلها الواحدة تلو الأخرى لما أدت مجموعتها كل المعنى المراد فان الروح التى فى كلمة «إقرأ» التى كسبتها بوضعها مع الـكلمات الأخرى فى الآية أعطتها قوة وحياة فى معانيها لا تكفى لها كل هذه الـكلمات أو غيرها فأداء هذه الـكلمة « إقرأ » لهذه المعانى كلها هو خلق آخر لها قد أعطاها قوة ونشاطا فى مجالات تعبيرها .

إن كلمة « إقرأ » وحدها لفظ جامد ولـكن بوضعها فى هذا الموضع مع الـكلمات الأخرى التى تم بها تركيب الآية وتنسيق أسلوبهـا جعل لها وضعاً طبيعياً فيه حياة قوية حافلة بالمعانى المتعددة تتهيأ لها كائنات الوجود للنظر والتأمل وتسرى فيها تيارات الفكر والتدبر وقد برزت بها أمور للفهم والاستنباط لولاها ما كان لها إعتبار ولا ذكر .

ومن أحسن ماقال ابن القيم إن الناس تتفاوت فى مراتب الفهم فى النصوص فمنهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك ومنهم من يقتصر فى الفهـم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه و إشارته وتنبيهه واعتباره وأخص من هذا وألطف أن تضمه إلى آخر متعلق به فتفهم من اقترانه به قدرا زائدا على ذلك اللفظ بمفرده . وهذا باب عجيب من فهم القرآن لايتنبه له إلا النادر من أهل العلم .

فأنت تجد كلمة « إقرأ » فى وضعها هذا من الآية كالقطعة من الآلة وضعت فى موضعها وعلى الصورة والنظام المطلوب لإدارة الآلة بها وعملها فيها . وأنها لاغنى عنها ولا عوض لها . ضمنت ظهور هذه المعـانى المتعددة بالدقة والقوة وصدق الدلالة والطبعية والوضوح .

ويلذ لنا أن نعود إلى القول بأنه سبحانه بدأ الهداية الإسلامية بهذه الأساليب الفكرية وذلك ليتمكن الناس بها أيضا من المعرفة واستخراج حقائق الأشياء لأنفسهم بأنفسهم بطريق التأمل فى الكائنات وتفهمها والاستنباط منها وهى الطريقة العلمية الحديثة . الطريقة التجريبية التى هى وليدة الملاحظة وإننا إذا لاحظنا معنى التربية الذى تضمنتـه كلمة (الرب) فى قوله « باسم ربك » وقوله « وربك الأكرم » لفهمنا أن من ضمن ما تحتويه مقاصد هذه الآيات وضع أساليب للتربية والتعليم وأنها تفيد من هذه الوجهة أمرين .

أولها : تربية الإنسان عن طريق الفهم . « إقرأ باسم ربك الذى خلق »

وثانيهما : عن طريق العلم . « إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » .

ولقد قدم سبحانه وتعالى وهو المربى الأعظم طريق الفهم بالتأمل والتدبر فى الخلق على العلم المسطور (Sience) لـكى يتعود الناس أولا حرية الفكر الضرورية للمباحث التربيبية والعلمية . وهذا الأسلوب العقلى فى بحث حقائق موجودات الـكون والخلق فيه مجال واسع عظيم للتفكير لاتساع أكنافه وتباعد أطرافه وتعدد موضوعاته وكثرة أسبابه فمن يعمل بهذا الأمر (إقرأ باسم ربك) يرقى بنفسه إلى أعلى الدرجات ويغذى فيهـا تلك الـكفاءة العقلية التى تسمو بالإنسان إلى المقام السامى اللائق بالإنسانية الصحيحة .

آخر عناصر اقرأ « المعرفة » :

إن تاريخ العلوم والفنون والصناعات وارتقائها إلى ماوصلت اليه وكذلك جميع الاقتراحات والاستكشافات يدل على أن أولئـك جميعا ثمرة الملاحظة والتجربة والفهم والاستنباط .

وضع العلامة روبرت روتلرج فى أوائل هذا القرن كتابا جليل القدر

بمكتشفات ومخترعات القرن التاسع عشر بدأ مقدمته بقوله « انه بتعرف سنن الطبيعة دون سواه يمكن للانسان تسخير قواها وتملك مواردها لتحقيق أغراضه . وإن تاريخ الفنون والمخترعات أو ارتقائها إلى ماوصلت اليه ماهو إلا شرح مسهب لهذا الأمر . ولما كانت هذه المعرفة لاتتأتى بغير ملاحظة الطبيعة تبين أن العلوم التجريبية ماهى إلا وليدة هذه الملاحظة لأن العلوم فى الواقع هى مجموعة الحقائق المستنبطة من الملاحظة موضوعة بطريقة مرتبة » وهذا قول حق فإن المكتشفات والمخترعات العظيمة القيمة وكذلك العلوم كلها نتائج لملاحظة موجودات الكون ومعرفة حقيقتها وهو أثر من آثار السير على هدى الإسلام وتوجيه القرآن الكريم. وهذه المعارف التجريبية كان لها بلا ريب الأثر الأكبر فى سعادة الإنسان ورقيه فى جميع نواحى المعيشة وتلك الآثار قد أوجزها أحد الكتاب الإنجليز بتصرف من كلام للعلامة ماكولى بقوله « لقد أطالت أعمارا وخففت آلاما . ومحت أمراضا . وأكثرت من خصوبة الأرض . وأعطت للبحار ضمانا لم يكن يحلم به من قبل . ومكنت من عبور الأنهار والخلجان بالجسور وآمنتنا شر الصواعق . وأضاءت لنا الليل فجعلته نهارا. وقوت خيال الإنسان كما قوت عضلاته وزادت فى سرعة حركات النقل حتى كادت تمحو المسافات . وسهلت اختلاط الناس بعضهم ببعض وأكثرت المراسلة بينهم . وغيرها من موجبات الصداقة . ومكنت الإنسان أن يغطس إلى قاع البحر أو يصعد طائرا فى جو السماء أو أن يدخل آمنا فى حفريات الأرض المسمومة وأن يجرى على الأرض بسيارات لاتجرها الخيل وبسفن فى البحر ضد الرياح . هذه هى بعض ثمار المعارف بل أول ثمارها » .

الكون كتاب الإبداع :

حقيقة إن من يقرأ فى الكون يستفيد من وجوه شتى ويكون كمن يدرس

كتابا هو أجمل الكتب وأعظمها ولا غرو فالمسطور فيه هو كلمات الله جل جلاله وبديع آياته . ولقد أجاد الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى وصفه بقوله « إن هذا الكون هو كتاب الابداع الالهى المفصح عن وجود الله وكماله وجلاله وجماله . وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » وقوله « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » . وكلمات الله فى التكوين باعتبار آثارها ومصداقها . هى كلمات اللاهجائية من المخلوقات والمبدعات الإلهية التى تنطق بلسان الحال بما هو أفصح وأصدق من لسان المقال » .

ولقد أحسن الأستاذ الإمام ثانية بقوله « إن لله كتابين كتابا مخلوقا وهو الكون وكتابا منزلا وهو القرآن . وإنما يرشدنا إلى هذا طريق العلم بما أوتينا من العقل فمن قرأ وأطاع فهو من الفائزين ومن أعرض فهو من الخاسرين »

وهذا حق لا مرية فيه لأن القراءة فى صحائف الكون تحيي النفوس وتحرر العقول وتحرك القلوب . إنك كلما تقرأ فى شىء من الكون فانك تستخرج منه مايفيدك علما وحكمة ويكسبك معرفة . فيه آيات منثوره هنا وهناك تعطيك صورا لعظمة خالقها ومبدعها . وهى صحائف فى متناول كل راغب فى الاستفادة بها ميال إلى النظر والتأمل فيها والإستنباط منها كتاب صحائفه واسعة ومباحثه متعددة وقواعده ثابتة وعباراته بينة تقرأ فيها الكلمات واحدة واحدة كالدر المنثور كما تطالع فيها الجمل الجامعة للأشتات كأنها اللوح المنشور . بله اللوح المحفوظ . هى كلمات الله التى لا اعداد لها ولا حصر ولا غموض فيها ولا إبهام . هى كلمات من جهة الرب إلى مربوبيه . ورسالة من الخالق إلى مخلوقيه . تقرأها فلا تمل

نفسك . ولا تفتر همتك . إنك كلما ازددت فيها تأملا وتفكيرا زادتك بهجة وسرورا ولذة وحبورا .

ونحن لا نغالى إذا قلنا أن هذا الكون أو هذا الوجود ليس مجرد كتاب عظيم كما وصفناه فحسب . بل هو دائرة للمعارف واسعة النطاق (encyclopydea) ليس مثلها موسوعة للمعارف والمعلومات فما أجل آيات القرآن الكريم التى ألفتتنا إليه .

كشف المجهول وتسخير قوى الطبيعة :

وحاصل القول إن القراءة فى عالم الطبيعة وسيلة لإدراك المعلومات وطريقة لكشف المجهول من حقائق هذا الكون وإن كشف هذه الحقائق يؤدى إلى معرفتنا كيف تسخر موجوداته وتسخر قواها لمصلحة الإنسان وقد قال تعالى « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

ولا ريب أننا قد وصلنا إلى كل ما وصلنا اليه بتسخير قوى الطبيعة التى دقق الإنسان فى مشاهدة موجوداتها وتعرف نواميسها وما أوجدها الله من أجله وهى التى بعد أن أجملها تعالى فى أولى آيات التنزيل أورد الكثير منها بالتفصيل « وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . حقيقة أنها نعم لا تحصى ولا تعد وقد جعل الله تعالى كل ما فى خلقه فى الأرض برها وبحرها بل وما فى جوفها وجو سمائها كلها لنفعنا « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

ونخرج بإيجاز إلى أن كل النتائج العديدة التى وصل اليها العلم ليست إلا وليدة الملاحظات الحسية مع الإستنتاج المنطقى فنتنبه بعد ظهور هذه المكتشفات والمخترعات إلى أن الكثير مما تضمنته آيات القرآن الكريم لم يكشف بعد عنها

الآثام ولم يفصح عنها عالم ولا إمام . هدانا الله إلى كنوز المعرفة وأسرار القرآن

القراءة فى كتاب الكون هداية للحواس والعقل معا :

إن هذه القراءة فى عالم الطبيعة فيها كما قلنا تدريب النفوس على النظر والتأمل أى فيها الهداية للحواس وللعقل معا وبها تتربى قوة الانتباه والملاحظة فهذه القراءة تفتق الذهن وتوسع العقل وتهدى إلى معرفة الشيء على حقيقته والانتفاع بكل شيء بما خصص له . وتلك الآيات الكونية يدهش المتأملين بعض ظواهرها فكيف بمن يدرسها ويقرأها « وفى الأرض آيات للموقنين »

لقد قال بعض العلماء . إن الفارق الحقيقى بين الإنسان المدنى والإنسان الوحشى هو التفكر ، ولا غرو فبقدر التفكر فى آيات الخالق تعالى فى الأنفس والآفاق ودراسة سننها وحكمها فى الكائنات يكون ارتقاء الناس فى العلوم والأعمال والمعتقدات جميعا .

معرفة الحقائق من الأمور الكسبية :

ولله الحكمة البالغة بأن وكل سبحانه وتعالى بقوله « اقرأ » معرفة الإنسان للحقائق الكونية ولحقيقة نفسه إلى بحثه واشتغاله بجده واجتهاده وجعلها من الأمور الكسبية ليتسع بالبحث فيها فكره ويكبر عقله ويزداد رقيه « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

وما أحسن ما جاء به الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فى وصف الطبيعة وصفا يناسب المقام الذى نحن فيه حيث قال « إن الطبيعة إذا صادفت كفؤا حقيقا بها . وواليا مطيعا لها وناهضا بأعبائها أضفت عليه ملابسها وكشفت له عن نفائسها وأماطت عن سرها الحجب ونفت عنه معتلج الريب وكانت له

رائدا فيما يطلب وهاديا حيث يؤم و يذهب فانما تفصح الطبيعة عن مضمونها وتظهر مكنونها لمن تعرف فيه القدرة على فهمها وترسمها من معاريض رموزها واستشفافها من وراء اثامها وتظن فيه الابقاء فى الوفاء وتستشعر فيه الآداء » إلى أن قال « الطبيعة كتاب مطوى تعلن منه فى كل عصر صحائف نتاوها على الناس أناس هدوا اليها ودلوا عليها وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم و بينها » . فليتأمل المساون و يجدوا فيجدوا فهذه هى هداية دينهم وتوجيه قرآنه

جمال الطبيعة وجلالها والتمتع بلذة قراءتها :

على أنه ليس هذا كله ماتفيده القراءة فى كتاب الكون لاستفادة المعارف وتفتيق الأذهان ولتسخير القوى الطبيعية . فان للطبيعة فى ذاتها فوق هذا وذاك جمالا لا يطاوله جمال وجلالا فوق كل جلال ففى مجرد النظر اليها والتأمل فيها متعة روحية ولذة نفسية تسحر القلوب وتأخذ بمجامع الألباب وما أرق وأدق ماقاله الكاتب الانجليزى « وردث ورث » . « إن للطبيعة فضلا على الإنسان فانها لا تزال تسرى به من لذة إلى لذة ومن متعة إلى متعة وأنها القديرة أن تملأ بالعلم قلوبنا و بالروح صدورنا و بالخواطر العذاب نفوسنا وتبعث فى أرواحنا من أسباب اليقين وتغرس فى أفئدتنا من بذور الايمان ما هو جدير أن يرينا مناقم الحياة بعين الرضى وخليق أن يجعلنا نغض أبصارنا عن مساوىء الدنيا ونغمض أجفاننا عن أقذائها فيعذب لنا من مشارب العيش ما ملح ويحلو لنا من مراتع الحياة ما كان مرا ولا يدع فى صدورنا محض اليقين وخالص الرضى موضعا للتألم من شتم شاتم أو حسد حاسد أو غدر غادر وسائر سيئات هذا العالم ومنغصاته »

وكتب اللورد أوفبرى عن عاشق الطبيعة فأبدع . قال « كل من يعشق الطبيعة تعشقه وكل من يهديها الود تهديه مع الود أطيب تحف الأرض وأنفس

ذخائرها . تهديه الخواطر الحسان والسلام والامن والرضى . ما أسعد عاشق الطبيعة فإليه تثوب الفصول الأربعة فرحة به مستبشرة كأنما تلقى به خلا حميما وصديقا قديما فله تغرد الحمائم وتشدو واليـه تشوق الأزهار وتهفو وكلما أدبر عام وأقبل خلفه تلفت وراءه إلى ذخيرة من الذكريات طيبة وتطاول قدامه إلى جائزة من الملح معجبة » . وكتب غير ذلك . « حب الطبيعة مدعاة انا إلى اجتناب كل مامن شأنه تكدير صفاء الذهن و إثارة سكينته من حقير الأمور ودنىء المشاغل . حب الطبيعة ملىء أن يجعل كل غدوة انا بالرياض أو روحة وكأنها ضرب من التسبيح وصنف من العبادة يضىء لنا الحياة حتى تعود وكأنهـا قصة من أحسن القصص » .

و يصف كنجزلى مايحف داره من الحزون والبطاح وصفا يشف عن الحنين والوجد فيقول « حسب السماء والأرض ما أن يزالا يمتعـان طرفى و يبهجان صدرى بكل طرفة من الجمال وأعجوبة فحبذا تلك التلاع أطرقها وحيدا ومع هذا فلا تجد الوحدة إلى نفسى سبيلا ولا تصيب الوحشة إلى قلبى دليلا وأين منى الوحدة وأنا لى فى كل ورقة بذلك الايك صديق و بكل زهرة فى ذلك النبت رفيق وفى كل نحلة ترشف ثغور الريحان زميل وكل عصفورة تعتلى متون الأغصان خليل . أين منى الوحشة وما من جـدول بذلك المكان أو بركة الا نظرت بصفحته قصة جان . ورواية مردة وفرسان لا أكاد أفهم منها إلا سطرا هنا وسطرا هناك . إلا أنها ألذ فى خاطرى وأبهج فى نفسى من جميع ماضمت الخزائن من الـكتب والأسفار وحوت الصحائف من السير والآثار » .

وكتب الأستاذ أحمد أمين بك فى جمال العالم :

« العالم مغمور بالجمال فى صغيره وكبيره ودقيقه وجليله ، فى السماء والأرض

فى النجوم بضيائها ولمعانها ، فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، فى عظمة البحار ، فى جلال الجبال ، فى شروق الشمس وغروبها ، فى الطير يطير فى السماء ، فى السمك يغوص فى الماء ، فى الحركة والسكون ، فى الأشكال والألوان . الطبيعة جميلة فى كل جزء من أجزائها ، وأجمل من أجزائها جمال كلها ، فليس الكل يساوى الأجزاء ، فجمال أجزاء الطائرة مفرقة ، ليس كجمال الطائرة كلها طائرة ، ولا جمال أجزاء الإنسان كجمال الإنسان كلا . إن الطبيعة فى جمالها ككل تسحر العين ، وتأخذ باللب ، وتملأ القلب روعة حتى ليشعر فى وقت صفائه أن هذا فوق أن يوصف ، والألفاظ أعجز من أن تعبر عنه » .

وكتب الأستاذ أحمد وفيق فى روح الطبيعة « الطبيعة أول وسط أحاط بالإنسان واستودعه الله روحا من عنده . وقوة من قوته . فجاء وسطا ملهما موحيا مبدعا بل قل أن هذا الوسط كان فى الوقت نفسه الفنان المدهش يرسم ويصور وينحت ويذيب ثم يصب فى قوالبه الخاصة . ليخرج أشكالا وصورا ولوحات وتماثيل مطبوعة بطابعه . هى آية الجمال والروعة والبهاء . وسبك الاتساق . وأحكام الانسجام والتناسب دون أن يتناول هذا الفنان ريشته أو يمزج ألوانه أو يوقد النار ليذيب مادته أو يصطنع من المعادن المختلفة قوالبه أو يمس بيديه عجينته . أنه فنان مصنعه العالم وأدواته ومادته العالم . فالطبيعة أول وسط أثر فى الانسان وكون أفكاره وآراءه وعاداته وقوانينه ونظمه واخلاقه وكون خلق الجماعة أى الخلق القومى المحدث لكل نظام والمتلائم مع مقتضيات الزمن والمكان .

ونرى أن نكتفى بهذا القــدر فأن كتب الأدب العربية ملأى بالدرر الغوالى فى هذه المعانى .

ملكة الفنون عند الأمة الاسلامية :

ونزيد هنا أن ملكة الفنون الجميــلة هى وليدة نظر الإنسان فى الطبيعة وتأثير جمالها وجلالها فيه وميله لتقليد أجمل ما فيها ولقد قال العلامة جوستاف لوبون فى كتاب « تطور الأمم » أنه لاحظ أن ملكة الفنون لم يتم تكوينها فى أمة من الأمم الناهضة الا فى ثلاثة أجيال أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الأستقلال والاجتهاد الاالعرب وحدهم(يريد المسلمين) فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدأوا فيه بمزاولتها ونحن نقول « لاغرو فهذا فيهم أثر كريم من آثار آية (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وماجاءت لهم به الآيات الأخرى تفصيلا لها فقـــد وجهتهم الى التأمل فى الكون و بديع نظامه والوقوف على جماله وجلاله » .

الفرد العادى وعلمه بهدى القرآن :

أن ورود هذه الآية بهذا الأســلوب فيه معنى جليل آخر وهو أن المعرفة التى يكتسبها الانسان من القراءة فى الكائنات ليست بعيدة عن متناول علمه كمايبدو بادىء الرأى . ولهذا فالفرد العادى لايصح أن يكف عن النظر والتأمل فى المخلوقات أو يكون أقل تفكيرا فيها للوقوف على نظام الوجودوجماله وجلاله من طالب العلم أو الفلسفة بل يعمل فى ذلك بما فى استطاعته مع المثابرة لأنه بتأمله وتفكيره يتفتق ذهنه وتقوى قريحته و يتمتع بالجمال والجلال فيكون إنسانا له شخصيته ومكانته مثلهما أهلا للقيـــام بواجبه فى الحياة . صالحا

للاشتراك فى أقامة كيان الأنسانية المثلى . ولا شك فى أن المعارف المستمدة من الاستقصاء والتحرى والتجربة أعظم قيمة وأجل قدرا وأكثر فائدة من العلوم المسطورة المصطلح على تسميتها علوما و بخاصة أزاء الرجل العادى لأن هذه المعارف تبنى على المشاهدات المسلم بها من سمع الانسان و بصره وفؤاده . على أنه فى عصرنا الحاضر صار من الممكن للانسان العادى أن يجمع بجهده واجتهاده بين نوعى المعرفة لغرض الدراسة والبحث ـ فأن دراسة العلوم أصبحت أسلس قيادا وأقرب للعقول من ذى قبل وحتى فى استطاعته أن يحاول التعلم عن طريق المراسلة مع من تخصص لذلك . فكل انسان فى وسعه الاستفادة بقدر اجتهاد ه ومواصلة دراسته . وليطمئن الرجل العادى الى أن ما سيفضله به العالم أو الفيلسوف بعد ذلك ليس الا بقدر ضئيل بالنسبة لبحر العلوم الخضم فأننا مهما تعمقنا فى البحث فلن نحيط منها الا بالنذر اليسير فيلسوفنا وعالمنا والرجل العادى منا « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » فليهتم كل منا أيا كانت مقدرته الثقافية لهـذا التوجيه الربانى عملا بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . والنفس راغبة اذا رغبتها .

والرغبة فى المعرفة هى الرغبة فى الحياة . وما يغلق إنسان على نفسه باب المعرفة الا قد خمدت فيه جذوة الحياة فلم تعد فى حاجة الى الأكسجين الذى يجدد اشتعالها . والقراءة التى حضت عليها هـذه الآية الحكيمة هى باب المعرفة وطريقها . فاعمل بها تفز بأجل النتائج وأعظم الخيرات .

عود الى معانى كلمة « اقرأ » :

معنى كلمة اقرأ فى لغة العرب وقبل أن تعرف الكتابة والقراءة الاصطلاحيتان

معناها الجمع كـكلمات أخرى غيرها تفيد الجمع أيضا مثل الضم واللم والجملة وأيضا كلمة « كتب » معناها جمع وليس كل الجمع سواء . والمرادف فى الألفـاظ لايتساوى تماما مع مرادفه فى المعنى والا لما احتاجت اللغة الى أحـد اللفظين ونبذته . فالـكتيبة مثلا جمـع من الجند والكلمة مشتقة من كتب ولكن ليس معناها مجرد الجمع بل هو الجمع المنظم والمرتب — ومفهوم « اقرأ » الجمع بالنظر والفكر فهى أحسن لفظ يؤدى أيضا المعنى الاصطلاحى المقصود منه لذلك كانت خير كلمة لبداية هذه الآيات « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الأنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم » وذلك لما تؤديه « اقرأ » من كلا المعنيين الأصلى والاصطلاحى فى كل من الآيتين . وقال العلامة فخر الدين الرازى بأن « اقرأ » الأولى لذات النبى عليه السلام و « اقرأ » الثانية للتبليغ أو أن الأولى للتعلم والثانية للتعليم وهو تعبير دقيق وجميل .

النظر الحسى والنظر العقلى :

وحاصل ماتقدم من القول أن هذه القراءة التى أوحى بها سبحانه وتعالى تجمع بين النظر الحسى والنظر العقلى . وهذان هما مبدآ التعقل والتفكير واجالة النظر فى الأمور. والفكرة كما قيل مطرقة للعلم . فسبحانك اللهم ماأجمل ماتدعو الإنسان إلى الإهتمام به والالتفات اليه « إقرأ باسم ربك الذى خلق » تأمره أن يجعل الكائنات تحت بصره و بصيرته بمختلف أنواعها فيتأمل فى ماهيتها وخصائصها فرادا وجماعات و يستنبط منها ماشاء من المعلومات .

جمع آيات الله فى الخلق فى صحائف الذهن :

على أن هناك معنى آخر وهو أنه تعالى أراد أيضا ب « اقرأ » جمع آياته

فى الخلق فى صحائف الذهن ليكون لها أثرها من اتساع الفكر وكمال العقل . فما أحسن هذا الأسلوب البديع الذى أتى به القرآن الكريم تؤدى به الكلمة الواحدة فى الآية أو الآيات معانى كثيرة فتشحذ الذهن وتفسح مجالا واسعا للفكر وفى هذا من النفع والافادة لرقى العقل البشرى مافيه .

أمر التكليف وأمر التكوين فى كلمة اقرأ :

ولنرجع إلى بحث آخر فى قوله « إقرأ باسم ربك » . فانه إن كان مراده تعالى تكليف المخاطب بالقراءة فيعتبر أنه تكليف وتشريع . وقد كان المخاطب الأول نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم . فنحن نأخذ عنه بهذا الأمر ووجب علينا أن نعمل به إذ ليس فيه ما يدل على تخصيصه به وحده دون من إصطفاه لهدايتهم وقد عهد من أسلوب القرآن أن يكون الأمر يؤمر به النبى ولا يذكر أنه خاص به فإذا أريد التخصيص جىء بما يدل عليه كقوله تعالى « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » وقوله « خالصة لك من دون المؤمنين » .

وإن كان مراده تعالى أمر تكوين . أى أن الله تعالت قدرته لما تعلقت ارادته بأيجاد هذا الدين وبأن يجعل من محمد بن عبد الله نبيا ورسولا مبشرا به ونذيرا . أوجد فيه القدرة على القراءة فأحاط شعوره بذلك بخطابه له « اقرأ باسم ربك » فهو تصوير لتعلق إرادة الربوبية بايجاد القدرة على القراءة فيه — فهو أمر قدرى كونى — وعلى هذا يكون ما تفيده هذه الآيات هو أن الله تعالى أعطى محمدا استعدادا فى العلم والعمل لاحد له وذلك لتهيئته لتلقى أكمل دين وأكمل رسالة وليحمله هذه الرسالة للعالم أجمع ويختم به الانبياء و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . ولما كانت أعباء هذه الرسالة كثيرة تحتاج

لعقل كبير وعلم غزير . وتحتاج للحكمة والرصانة و بعد النظر وكال الفطنة وسرعة الخاطر وأصالة الرأى وقوة الحزم فى كل ما يصدر عنه من قول أو فعل . أودع الله فيه أقوى الملكات وأدبه أحسن تأديب ثم أفاض عليه من العلم والحكمة ما لم يبلغهما أحد من قبله ولامن بعده . ولم يكن يدرى من قبل ما الكتاب ولا الأيمان فلم يسبق له أن تلقى علماً أو مارس فلسفة بل كان رجلا أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، إلا أن الله تعالى قد حباه وكفله برعايته وهيأ له أسباب التربية الصحيحة فنشأ ذكيا فطناً وعلى الأخلاق القويمة من عزة النفس والاعتماد عليها والصدق والأمانة والصلاح والتقوى ويسر له الرزق الحلال فاشتهر بين قومه « الأمين » ثم أفاض على قلبه وعمره أربعون سنة بهذا القرآن الكريم ولم يؤثر عنه شيء إلى ذلك الحين من مثل علومه ولا مما يقرب من بلاغته وأسلوبه فأوحى اليه ما أوحى من آياته الكبرى . هداية عليا للناس أفاضها على أحد خواصه من أفق أعلى من عقله وحواسه بدأها بالوحى اليه أثناء تحنثه فوق جبل « حراء » وأن المجال لواسع فى الكلام على عظمة هذا النبي الكريم من قبل الوحى ومن بعد الوحى . ولقد أنزل الله عليه بعد النبوة من باب التذكير «ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى» وفى مقام آخر قال له تعالى فى وصفه «وإنك لعلى خلق عظيم» .

والآن هل نتهى بما ذكرنا إلى أن (إقرأ باسم ربك) جاء أمر تكليف أو أمر تكوين .

الذى نراه نحن هو الأخذ بالوجهين لأن الآيات تفيد المعنيين ولا محل للتخصيص وهو لم ينص عليه ولئن نحن أخذنا القرآن بجميع وجوه معانيه أولى من الاقتصار على البعض دون البعض بغير مرجح .

الاستغناء عن معمول فعل اقرأ :

أننا مع هذا كله لم نوف مباحث كلمة « اقرأ » فى الآيتين حقها ، اذ يعوزنا بحث آخر يتطلبه علما النحو والبيان ، فان معمولها فى الآيتين « اقرأ باسم ربك الذى خلق » و « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » ليس مكشوفا عن وجهه ولكنا نجده مدلولا عليه بغيره وهذا لا شك أفخم لشأنه وألطف لمكانه فان ما لم يأت صريحا ويجىء من جانب التعريض أو الكناية أو الرمز أو الأشارة . له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لا يستقل قليله ولا يجهل فيه موضع الفضيلة . فما أجمل هذا الاستغناء عن ذكر معمولى « اقرأ » باللفظ الصريح والاكتفاء بما يدل عليهما وهذه دقة فى البلاغة لا يهتدى إلى مثلها إلا غواصو بحر البيان ولا يكادون يجدون فرائدها إلا فى أساليب القرآن وفيها أيضا توسيع لأفق القراءة بدلالتها على العموم والشمول بعدم تخصيصها بمعمول .

ولقد جاء فى تفسير البيضاوى فى معنى « اقرأ باسم ربك » أى اقرأ القرآن مفتتحا باسمه أو مستعينا به . وفى تفسير الفخر الرازى أيضا ما يفيد أن المفعول المحذوف هو القرآن مستدلا بقوله تعالى « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » وقوله تعالى « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » . ونحن نرى أنه لا مانع من الأخذ بالمعنيين . أى اقرأ القرآن أو اقرأ فى الكائنات وهى كلمات الله فى الوجود وآياته البينات .

ويلاحظ كذلك وجود الاستغناء عن معمول فعل « خلق » فى قوله « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وفعل «علم» فى قوله « علم بالقلم » وذلك لأن

باقى ما فى الآيات يدل عليهما وهذا الابهام من بلاغة القرآن التى امتاز بها اعجازه البيانى ..

آراء فيما تفيده القراءة فى الكائنات :

والآن لو تخيلنا عرض فكرة القراءة فى كائنات الوجود على جمهرة من العلماء وذوى الرأى وسألناهم ماذا أفادت . فأننا ننتظر أن يكون لكل رأى خاص وقد تكون أجابتهم على النحو الآتى :

١ — يقول الدينى : هـــذه القراءة تنشىء فى الإنسان خاصة النظر والاستدلال فيؤيد دينه بالعقل فمن يقرأ الخليقة يكون على بينة من ربه ومتثبتاً من وحدانيته « قل إنى على بينة من ربى » . « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »

ويقول هذه القراءة ترفع قواعد الايمان على أساس الحجج الكونية العقلية وتجعل صاحبها يسلك هذا المسلك فى تقرير الشرائع العملية والحكمة الأدبية والسياسة الاجتماعية « يا أيها الذين آمنوا قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » .

ويقول هذه القراءة تحرر العقول من رق العبودية والقلوب من أسر الأوهام وترتفع بها النفس إلى الأفق الأعلى حيث يضىء عليها نورالحق الآلهى « نورعلى نور يهدى الله انوره من يشاء »

٢ — ويقول العابد : هذه القراءة تجعل العابديحس بصلته المباشرة بالله فيكون فى عبادته كأنه يراه .

٣ — ويقول الروحى : هذه القراءة فيها فضل شحذ البصيرة والكشف عما فى الخلق من كنوز عظيمة فلو أن ظاهرها الدراسة فى عالم الشهادة الا أنها

نؤدى أيضاً للايمــان بعالم الغيب الذى به يكمل للانسان دينه وتتم عليه نعمة ربه .

٤ — ويقول المتصوف : ما ألذ هذه القراءة كأنما والبصر ينظر فى بدائع هذا الخلق والنفس تناجى جلاله أن كلمات ما أفصحها وأبلغها تنساب من ضمير الـكون فتوحى للانسان بالحـكمة والتعريف بمواطن السعادة والعظمة . هذا الـكون هو قدس الفـكر وكتاب المعرفة والحـكمة . قراءته تدنى من إدراك الحق والجمال معا فيتم بها الوصول للـكمال المثالى .

ويقول : إن كل ما خلقه الله تعالى حسن فى نفسه متقن فى صنعه ومظهر لنوع أو أنواع من حكمته وقدرته . ولا شىء منه بباطل «وما خلقت السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق »

٥ — ويقول الحـكيم : هذه القراءة هى الحـكمة بعينها فان الحـكمة معرفة الحقائق على ما هى عليه ثم أن التأمل فى الـكائنات بعين البصيرة يزكى النفوس ويطمئن القلوب ويشرح الصدور . هى نظرة التعقل التى تجلب السعادة وتبعد الشقاء (ومن يؤتى الحـكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

ويقول : هذه القراءة تفيد أن الحـكمة الإسلامية تعتمد على الفطرة الانسانية السليمة وتجعل قوى التفـكير والنظر خادمة لها ومعينة عليها والفطرة الانسانية واحــدة فى الناس جميعا « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإنما يتفاوتون فى قوة التفـكير والنظر والاستنباط وبقدرهـا تـكون الاستفادة ويكون الارتقاء فلم تلتزم الحـكمة الإسلامية ما التزمته الفلسفات من الحدود العلمية ولـكنها نشرت نفسها فى الجو الطلق الصالح الذى لا يحد بحد . هى ليست بحاجة الى التدليل بأكثر من الأشارة اليها فهى توجهك إلى المنهل

العذب الذى ليس مثله فى الصفاء مستقى وتهديك الى الحق الذى ليس فوقه مرتقى تجدها غنية بالأصول المرقية للحياة البشرية ومترعة بالمثل العليا المقومة والمهذبة للنفسية .

٦ — و يقول الفيلسوف : إن هذه القراءة تجذب الإنسان إلى جانب الاتجاه الفلسفى الذى يرمى إلى الشرح الكلى للكون و يهدف إلى كليات مجموعة الظواهر ليستشف من وراء حجبها طبائع الأشياء وكثيراً ما يعثر الفكر فى مجهودات اتجاهه الفلسفى على نظريات جريئة تعتبر ثمرة من ثمار الفكر الخصب المتأمل الذى هب — منذ عرف نفسه وأدرك رسالته — يهدف إلى غرض من أسمى الأغراض وهو كشف مبدأ الكائنات وطبيعتها وسننها ونظامها وثمرة وجودها بينما تجذب القراءة عملا بالآية الأخرى (إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) إلى الاتجاه العلمى للفكر الإنسانى و إن أول ما تنكشف عنه البحوث العلمية فى العموم هو تلك الرغبة الحادة التى تدفع العلماء فى قوة إلى محاولة الإتيان على عناصر المسألة التى يعرضون لها بقدر ما تسمح به الطاقة البشرية ولو انهم يشتغلون دائماً بمسائل خاصة و يفرغون جهدهم فى حلها متقيدين بالتحديدات التى تسمح بها المعارف الإنسانية وتقرها المناهج الرياضية أو التجريبية السائدة فى العصر الذى تجرى فيه بحوثهم .

و إذن فالإنسان يجد بين جهود الفكر فى اتجاهه العلمى بحوثاً محدودة أو نتائج تفصيلية ثابتة راجعها العقل مراراً على ضوء المناهج الرياضية الدقيقة أو على ضوء التجارب العملية للتحقق من صحتها . ومن هنا يتبين أن الفلسفة تختلف مع العلم فى الطبيعة والمناهج والغاية معا ولا غرو إذا كان هذا مما تلفت الآيتان الذهن اليه .

ويقول أيضاً إن هذه القراءة التى أمر بها تعالى بالآية الأولى . هى منشأ جميع الفلسفات ومأتى جميع النظريات ومثار التطورات التى توالت على الذهن الإنسانى فكانت سببا لصعوده على سلم الارتقاء . بل هى الفلسفة الحقة نفسها الكاشفة للحقيقة والمشوقة للمعرفة . فلسفة التأمل التى تزيل الشك وتثبت اليقين ولا شك أن الدين الذى وضع أسسه على الدراسات التى من هذا النوع المبنية على النظر فى الوجود والتأمل فى الموجودات وبخاصة فى طبيعة الإنسان والاستعانة بما وصلت إليه العلوم مع الاعتماد على حكم العقل وحرية الفكر . دين هذه أصوله الأولية . إنما يناسب الفلسفة لاسيما الطبيعية منها كل المناسبة . وهذا لم يسمع مثله فى تاريخ أو تعليم أى دين غير الإسلام . ولقد عاشت المباحث الفلسفية فى كنف الإسلام آمنة ووجدت لها صدوراً رحبة وقلوبا واعية ولهذا مهر المسلمون فى الفلسفة عامة وفى العلوم الطبيعية خاصة مهارة فاقوا بها جميع من تقدمهم حتى عد المؤرخون الأوروبيون لهم عشرة آلاف عالم طبيعى وهؤلاء عدا من لم تحفظ سجلات العلماء أسماءهم عندهم ولكن العلوم نفسها قد خلدت ذكرهم . ويقول جوستاف لوبون فى كتاب حضارة العرب إن فلاسفة المسلمين كانوا معلمى أوروبا مدة خمسة قرون وكذلك قال غيره وأثبته التاريخ فبين دين الإسلام والفلسفة والعلوم علاقة وثيقة لا تنفصم عراها أساسها هذه القراءة فى الكون .

٧ — ويقول عالم النفس إن هذه القراءة تفيد أن العقل الإنسانى قوة مستمدة من قوة الطبيعة .

ويقول أيضاً إن هذه القراءة تجعل معرفة الحقيقة عند الإنسان صفة محكمة فى نفسه حاكمة على إرادته فتوجهها إلى العمل . ومتى كان العمل صادرا عن إرادة كان بلا شك أصلح الأعمال وأنفعها .

٨ — ويقول المفكر : هذه القراءة تعطى عقلك فرصة التفكير فى موجودات الكون وتقليب الرأى فيه .

هذه القراءة دلت على أن فى الكائنات دقائق وأسراراً طريق العلم بها التأمل والفكر وأن فيها لطائف مستقاها الروية والعقل .

ويقول إن هذه القراءة خير إرشاد لإقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والتجديد المستمر فى مناحى الحياة وفى شتى العلوم وألوان الثقافة .

هذه القراءة تمتع النفس بلذة التأمل والتفكير فى بدائع الكون وتمتع العقل بلذة إدراك أسرارها .

ويقول : هذه القراءة فوق ما فيها من فوائد علمية أو مادية أو لذات عقلية أو روحية فإنها بذاتها حاجة فكرية فإن كل إنسان مهما يكن شأنه وعمله فى الهيئة الاجتماعية تمر به أوقات يرجع فيها الى صميم ذاته فينظر فى طبيعته وأخلاقه ويقارنهما بطبيعة غيره وأخلاقه أو ينظر نظر المنقب عن حقيقة نفسه وكيف جاء فى هذا الوجود ونشأ وإلى أى حال سيؤول فأرشده الله طريق التفكير السليم فى سائر الكائنات من جماد وحيوان ونبات والاستعانة بما وصل إليه العلماء المفكرون من قبله ليأمن صواب ما عليه تفكيره « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

٩ — ويقول المؤمن الناصح : هذه القراءة متى تمت بتأمل صحيح ودراسة عميقة فانها تدل على أن الكون قد خلق بأكمل أحكام وعلى أنه سائر على أتم نظام فيجد الباحث أن ما قد يظن فيه من فوضى فى بعض الجزئيات انما هو نظام صحيح لا يحدوه شىء من الخلل أو الفساد وأن ما قد يظن أنه ليس

فيه نفع أو ما يظن فى وجوده ضرر انما فى وجوده أسمى مقتضيات الحكمة وفيه الخير والنفع و ينتهى إلى أنه لا ينبغى أن يقيس ما يعمله البارىء تعالى بما يظن الانسان وجوب فعله . يعرف بدقة دراسته للكائنات أن فى الكون أمورا لا تصل اليها مداركه بمجرد النظر والتفكير البسيط اللذين لا يدخلان فى حكم ما أمر به تعالى بقوله « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . بل بالتأمل العميق والفهم الصحيح .

١٠ — ويقول السياسى : هذه القراءة تكسب المعرفة والعلم واستنارة أفكار الأمة بالتربية الصحيحة ومن ثم تكسب قوة تنال بها الحرية والحكم الديموقراطى الصحيح وقد سبق الإسلام غيره ببث هذه المبادىء ونجح فعلا بتكوين خير أمة أخرجت للناس .

إن أهل الولايات المتحدة الأمريكية يفخرون ويزدهون بأن زعماءهم فطنوا منذ بداية نهضتهم وثورتهم الاستقلالية الى العلاقة الوثيقة بين التربية والحكم الشعبى الصالح . يفخرون بأن وشنجتون حث الشعب فى خطاب الوداع على نشر المعرفة بين أفراد الأمة وجعلها هدفا له فى نفوسهم المكانة الأولى . مقرراً بأن الرأى المستنير هو من مقومات الديموقراطية . ويفخر الأمريكان بأن توماس جفرسون قال « إن الأمة لا يمكن أن تكون جاهلة وحرة فى آن واحد » وأن جيمس ماديسون قال « إن الشعب الذى يريد أن يحكم نفسه بنفسه يلزم أن يتسلح بالقوة التى تكتسب بالعلم والمعرفة » . أو بالإيجاز أن مؤسسى الجمهورية الأمريكية قد توافقوا على القول بأن نجاح الحكم الديموقراطى موقوف على تربية الشعب واستنارته وهو ما جاء به القرآن الكريم فى أولى آياته نزولا فكان للاسلام السبق بما يفخر به الأمريكان الآن . على أن الأمريكان

ما زالوا يقولون بأن التربيــة عندهم لم تتحقق بالـكيفية التى صورها كل من وشنجتون وجيفرسون وماديسون إلا متأخراً .

فماذا بنا نحن معشر المسلمين الآن ونحن منذ ثمانين وثلاثمائة وألف من السنين (ونحن الآن فى سنة ١٣٦٧ ﻫ) وقد بودئنا بالمثل العليا التى تـكفل إيجاد خير أمة وقد تحقق فعلا نجاح هذه المثل بتربية الفكر وكسب المعرفة و بث روح التضامن والإخوة والرابطة بين أفراد الإمة الإسلامية عامة وانتشار مبادىء الديموقراطية الصحيحة لا الديموقراطيــة المزيفة التى يطنطن بها الغربيون فى العصر الحاضر وقبله . ولقد انتظمت بآيات القرآن من أولاها حيــاة الناس وعاشوا فى ظل حكم صالح . فى أمن وعدل وحسن معاملة و إيمـان صحيح بالله . فكيف لا نستيقظ من غفلتنا ونعود فنرتقى بالعلم ونكتسب منــه القوة وقد بودئنا من أول نشأة أمتنا بالآيتين الـكريمتين « إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » ثم كيف تبقى الأمية بيننا وقد أشفعتنا بهذا التوجيه العظيم « إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » فنحن أولى بتعاليم ديننا أن نكون أرقى الأمم .

١١ — ويقول الاجتماعى : هذه القراءة عرّفت بوحدة روح الاجتماع وقررت أصول علم الاجتماع (Sociology) فلفتت الإنسانية إلى أنها من نفس واحدة ووجهتها لان تكون قلباً واحداً و يداً للجميع « والله خلقـكم من نفس واحدة » . هــذه القراءة فيها دعوة الأرواح إلى حقيقة سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة . و إرشادها إلى طريق الحيــاة الاجتماعية ما لا يستغنى عنه طالب للهداية والتهذيب .

١٢ — ويقول الأديب : هذه القراءة تشعر الإنسان بلذة وجوده فى العالم فيطوف من الحين إلى الحين فى رياضه الأرجه ويتقلب بين ظلاله الوارفة وعيونه الرقراقة ويجيل الطرف فى رقعته الشاسعة وآفاقه المجلوة . ويمتع النفس بمشاهده الرائعة ومطالعه المشرقة الرائقة وما أقسى الحياة وأمرها لولا طلاوة هذا العالم ونضارته وما أضيق رحابها لولا امتداده وفسحته . وما أكثف ظلمتها وأقل غنائها لولا شوارق أضوائه وسواطع آياته (من مقال للأستاذ محمود عباس العقاد) .

١٣ — ويقول المعلم المربى : هذه القراءة ثقافة تستمد نورها من مشكاة الذكر الحكيم فيها تربية وتعليم . ففيها تفتيق الذهن للفهم والتوجيه للعلم . هى قراءة تحيى الإحساس وتربى الحواس وتؤدى إلى المعرفة مع تقوية ملكة الملاحظة فكل البحوث فى الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان بل كل المخترعات من آلات وغيرها وكذلك الاكتشافات إنما عمادها هذه القراءة . حتى أدق العمليات الرياضية والهندسية هى ثمرة من ثمرات هذه القراءة .

هذه القراءة كشفت عن مناهل و بينت مناهج . مناهل المعرفة وهى الكون وموجوداته والإنسان وطبيعة خلقته . والعلوم بأنواعها مناهل ليس أحلى منها رشفا أو أكثر ريا ولا أفسح مجالا أو أقوم حالا وخيراً مآلا . وهى مناهل المعرفة فى المنظور وفى المسطور .

أما المناهج فهى مناهج التربية والتثقيف بقراءة كل أولئك ودراستها بحسب تكوينها وطبيعتها.هى مناهج تربيبة وتعليمية . فهذه القراءة تهدى إلى طريقة التعليم الصحيحة والتربية المثلى .

ويقول إن كائنات الطبيعة كأدوات مدرسية لكنها لا تتلف ولا تتكسر

ولا تستهلك بالاستعمال وهى توزع بالمجان لمن يطلبها إنما على شرط أن يجيد ويجد فى استعمالها فيلاحظ ويختبر ويكشف ويتعرف فيجد نتيجة أبحاثه باهرة.

١٤ — ويقول المنطقى : هــذه القراءة تجعل الإنسان على دين البصيرة والعقل والبينة والبرهان . ولقد عُرفت الجهة التى قامت منهـا الحجة بالقرآن وظهرت . وبانت وبهرت ألا وهى الدليل الساطع والبرهان القاطع فى القضايا الحقة .

١٥ — ويقول الطبيعى : هذه القراءة قد أطلقت حرية البحث من عقالها فى المفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى فأفادت العلوم الطبيعية وازداد نشاطها فتمحصت حقائق وتبينت طرائق وثبتت صحة عقائد كما ظهر بطلان بعض المبادىء والقواعد فآمن من آمن عن بينــة « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

١٦ — ويقول الطبيب : هذه القراءة أرشدت إلى فحص الأجسام فأدت إلى الوصول لطرق العــلاج من الأمراض ومعرفة مواد الشفاء . فـكان بهـا الـكشف عن الداء والدواء .

١٧ — ويقول الفلـكى : هذه القراءة كانت أساس علم الفلك وارصاده ومعرفة حساب السنين وأعداده فمن تتبع حركات الشمس والفصـول أمـكن المصريون القـــدماء وضع التقويم الشمسى من أربعة آلاف ومايتين وستة وأربعين سنة قبل الميلاد . ومن تتبع القمر وتقدير منازله وضع التقويم الهجرى العربى . كذلك عرفت أوقات الـكسوف والخسوف وغيرها مما يعرف من مضابط الارصاد المستمرة فى التحسين فى اعطاء نتائجها الباهرة وتقدم مباحثها فى لياليها الساهرة . « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

١٨ — ويقول المهندس : هذه القراءة رسمت الخط الفاصل بين العلم والجهل والظلم والعدل . فصارت معالم كل منهما واضحة لا يجد المبطل أو الظالم فرصة تسنح لتبرير تعديه أو ظلمه .

١٩ — ويقول مترجم السير : هذه القراءة أظهرت أن محمدا كان فى حياته أقوى من أن تؤثر فيه البيئة التى ولد منها وشب فيها كما تؤثر كل بيئة فى أصحابها. فما كان يفكر بتفكيرها أو يلهو بلهو شائع بين شبابها ولم يتعبد لآلهتها . وهو ولو كان عربيا أصلا ولغة وموطنا لكنه لم يكن كذلك نبيا ورسولا بل صار فى ذلك انسانا اجتماعيا عالميا أرسله الله للناس كافة فكان القائد للفكر الانسانى السليم وإليه يرجع الفضل فى اقامة الدعائم القومية للحضارة الانسانية الفاضلة الصحيحة والهداية إليها .

٢٠ — ويقول المؤرخ : هذه القراءة أوجدت من أمة بدوية متفككة الأوصال جاهلة سيئة الحال خير أمة أخرجت للناس فى العلم والحكم والأخلاق وقد أعطيت من مقاليد الحكم من مشارق الأرض إلى مغاربها فى أقصر وقت عرفه التاريخ وظلت عدة قرون تحكم بين الناس من مختلف الأجناس بالعدل والقسطاس فتركوا لغاتهم وتكلموا العربية وتركوا أديانهم وارتضوا الاسلام دينا . وصار المسلمون أمة واحدة أو جامعة أمم واحدة على اختلاف أجناس أهلها . وقد اصطحب الاسلام من بداية نشأته بفضل هذا التوجيه الألهى نهضة فكرية وعلمية بلغت أوجها من النضوج فى القرن الرابع الهجرى واستمرت زمنا طويلا رغم ما غشى المسلمين من ضعف سياسى وتمزيق امبراطوريتهم الواسعة إلى دويلات تتداولها أيدى الملوك الغاصبين وقد دب بينهم الشقاق واستعرت الحروب حتى تضعضعت الأمة وتدهورت وساءت حالها وطغى الجهل

على عقول أهلها . وانحرفت عن هداية الاسلام فعادت سيرتها الأولى أو كادت وكأن لم تغن بالأمس وأصابها ما أصابها . فلله الأمر من قبـــل ومن بعد . غفر الله ما كان للمسلمين من ذلات وأعاد للاسلام مجده الذى فات

٢١ — ويقول الفنان المصور : هذه القراءة ترينا مشاهد للوجود المشرق بنور الخالق جلت قدرته . ارتسمت فيها كل صور الجمال ومباهج الـكون . انها مشاهد متجددة الجمال دون استعمال أصباغ وألوان . فلنرقب هذه الشمس البازغة فى موكب الصبح النضير وجماله الساذج الغرير . أو نشاهدها وقت الأصيل ونجانبهـا فى الأفق ما يشبه طاقات زهور عسجدية وورود قرمزية أو لننظر فى ناحية أخرى هذه الجداول المنسابة تحمل بين ثناياها المترقرقة جواهر ماسية صافية وعلى صفحتها اللؤلؤية مرايا بللورية زاهية . وهناك أشجار مورقة وطيور صادحة . الا أن كل شىء فى هذا الوجود يمتزج بسحر الجمال ويلهم وحيــه الصادق العقول والأفــكار بآيتى الليل والنهار . فمن راض نفسه على أن يرقب الطبيعة ارتسم فى أخيلته ما يجول بالعــالم من صور شتى وتصبح الطبيعة له معلما أمينا يعلمه كل شىء ويلهمه روح الفنون الجميلة . وما فن التصوير الا وصول الفنان إلى قلب هذه المشاهد ومزجها بعواطفه ومشاعره وابرازها فى شكل متناسق فان هو تمكن من اتقان صنعه فقد وفق إلى الاستمداد من قدرة الخالق فتخرج صوره وألوانه ملهمة للنفوس النبل والسمو . وقد نجح المصور فى أداء رسالته . إذ أن مرد الفن ليس فى عذوبة الخيــال وجلال التصوير فحسب وإنما مرده فى الاتصــال بحقائق الأشياء وألهام الحـكمة .

ويقول إن ما تلقيه الصورة من الروع ومن المعــانى الصادقة أشد تأثيرا

وأثبت للحقيقة من وصف مشتملاتها سواء أكانت صورا للطبيعة أو لغيرها . فما بالنا إذا كانت هى منظر الطبيعة ذاتها . أنظر فى هذا الكون البديع ترى النجوم متلألئة بأنوارها ترى الرياض ضاحكة بأشجارها وأزهارها . ترى الطيور تغرد بألحانها . ترى الأشجار ترقص بأغصانها . ترى الأنهار تصفق بأمواجها . وكل ما فى الكون يوحى بالسعادة والمسرات . فما أجمل صوره وما أجل حقيقته .

قال جوستاف لوبون « ليس من المبالغة أن يقال إن الصورة خير من مئة مجلد فى الوصف » ثم قال « ولا يستطيع أروع القول أن يؤثر فى النفس بمثل ما تؤثر به رؤية الأشياء نفسها أو صورها عند الضرورة » .

٢٢ — ويقول الصحفى : هذه القراءة دعاية منظمة لتثبيت الحق واليقين خدمة للدين . ولكنها دعاية بأصدق أعلان وأثبت برهان لأحسن بضاعة وأتقن صناعة . فما أجلها دعاية . قصد بها تعالى وقوف الناس على قدرته وعظمته لأن صحيفة الكون هى أعلان منشور أمام جميع الأبصار كاللوح المسطور أمام العقول والأفكار فهى أوضح البيانات وأقوى الدلالات على عظمة قدرته تعالى وأبداعه فى خلقه « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » . أو قل إن هذا الكون هو أعظم مذياع . يحدث بأعذب الأحاديث وألذها على السماع « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به » نعم أن له فى العقول أيما تأثير . فيه السحر الحلال والعظمة والجلال . وبه بلوغ الكمال . وبسط أجنحة الرحمة ونشر ألوية السلام .

٢٣ — ويقول المخترع : بهذه القراءة أفتتنت العقول بالبحوث المادية ووضع القواعد للعلوم الكونية فكانت مصدرا للاختراعات والإبداعات التى

ترتب عليها ارتقاء الأنسان وأخذه بأسباب السعادة والرفاهية وتسربله برداء النعم الضافية إذ بوقوفه على النظريات الكونية ، وتمكنه من معرفة النواميس الطبيعية وخصائص الحيوان والنبات والجماد أمكنه أن يمتلك مواردها ويسخر قواها وكانت نتيجة ذلك هذه المبتدعات والمخترعات التى أوجـــدت أسباب الحضارة ونعمت بها الحياة .

٢٤ — ويقول الحربى : هذه القراءة جهزت الحق بأسلحة قوية جعلت له بها دائما الغلبة على الباطل كلما قام نزاع بينهما ولم يرجع الحق القهقرى بعدها أبدا بل صار ينتقل من نصر الى نصر . وقد تحصنت بها البشرية ضد تلك الفلسفات الرجعية التى تعود بها الى الضلال . وبهـا تحورت الأفكار والآراء فصارت تعمل ما فى الأستطاعة على تشذيب المعتقدات وتطهيرها شيئا فشيئا الى أن يتم لهـا صفاء جوهرها . فهذه القراءة كانت كلمة الفصل بين عصر وعصر . عصر الجاهلية وعصر المدنية .

ويقول ليسمح لنا عقلاء النصارى والإسرائيليين آن نقول لهم بصراحة إن ما صاروا عليه الآن من الاستنارة والرقى أنما سببه غلبة الثقافة الإســلامية والهداية القرآنية على الباطل من معتقداتهم والعتيق من فلسفاتهم . فقد نسفها الإسلام نسفا وأغرقها . وغشيها من أليم ماغشيها . فلتطمئن الإنسانية الى أن هذا الدين سينقذها مما هى فيه من الحيرة وينشلها من ظلمة المادة ويهديها طريقها الى الحضارة الصحيحة الجديرة بان تنشدها بعون من الله .

٢٥ — ويقول العالم الناقد : هذه القراءة تفصح عن قوة ذكاء القارىء وحسن التفاته وعن مثابرته واجتهاده وتبين قدرته على الاســتنتاج ودقته فى

الاستنباط ومقدرته على الأحاطة بشتى أنواع المخلوقات وتعرف خصائصها فرادا أو جماعات واستكشاف وجوه الاستفادة منها فهى امتحان للعقل والطبع والخلق والملكات .

تفتح باب النضال للعقول وفى نضال العقول متعة ونجاح .

٢٦ — ويقول المرشد : هذه القراءة لو استمر المسلمون على القيام بها كما يجب لما صاروا هوامش على صفحات الحياة . إنها تقوى ملكة التمييز والتقدير فلا يشتبه على المؤمن حق وباطل ولا صلاح وفساد ولا خير وشر ولا نفع وضر بل يسير فى كل أموره على هدى والعاقبة لمن اهتدى .

٢٧ — ويقول اللغوى : هذه القراءة هى أول أمر لله عز وجل فى القرآن ومن فعلها « إقرأ » سمى « القرآن » وهو أحد المصادر الثلاثة لإقرأ . وهى قراءة وقرء وقرءان — وجاء فى لسان العرب أن معنى القرآن الجمع وسمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها وتقول قرأت الشىء قرآنا جمعته وضممت بعضه الى بعض وجاء فى كتاب النهاية لابن الأثير : « تكرر فى الحديث ذكر القراءة والإقتراء والقارىء والقرآن . والأصل فى هذه اللفظة الجمع وكل شىء جمعته فقد قرأته وسمى القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها الى بعض وهو مصدر كالغفران والكفران .

وأقول إن الكلمات التى تزاد فيها الألف والنون تتضمن زيادة فى المعنى عن شريكاتها فى الأشتقاق . فالرحمن فيه من صفة الرحمة أكثر من الراحم والغضبان فيه من صفة الغضب أكثر من الغاضب . وكذلك فى المصادر . الكفران أشد من الكفر . والغفران أوسع من المغفرة . والقرآن أزيد وأمكن من القراءة فسمى به كتاب الله لما هو ملحوظ فيه من مداومة تلاوته وتدبر

آياته وتعدد قارئيه أبد الآبدين ودهر الداهرين . مع تيسيره للذكر . « ولقد يسرنا القرآن للذكر » وحفظ الله تعالى له «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»

هذه خواطر وردت على ذهني وبهـا انتهى بما استطعت إيراده خاصا باقرأ في قوله تعالى « إقرأ باسم ربك » فننتقل الآن إلى الكلام على « باسم ربك » ثم على الاسم وحده وعلى الرب وحده .

قوله تعالى « باسم ربك » :

لا ريب أن النفس التي تقرأ باسم ربها لهى أسمى النفوس وأطهرها وأعلاها شأنا وأقدرها . بلى وربي فهذا أعظم سمو الإنسان وأجل رفعة لقدره هو سمو بروحه . وسمو بشعوره . وأن ما نفهمه من هذا التعبير الجميل أنه تعالى يسمو بالقارىء إلى أسمى الدرجات فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه دانية ولا قاصية بل تتجلى أمامه حقائق المخلوقات ساطعة مشرقة وبألسنة الحق ناطقة صادقة تنكشف الحقيقة لشعاع عقله الفطري مجردة من الأوهام والخيالات وهذا هو التسامي بالنفس الإنسانية الذي يتعالى بها عن ضلالات العقول وزيغ الأبصار . فاقرأ « باسم ربك » فمن يقرأ باسمه تعالى يهيىء له من لدنه قوة روحية يسمو بها على كل شيء .

هذا أمر للانسان أن يجرد من نفسه نفساً لربها تقرأ باسمه تعالى متحلية بالتربية راغبة في المعرفة تتأمل في خلقه وتتدبر . وتزن الأمور وتقدر وفي هذا إشعار قوي للانسان بل أقوى إشعار بكفايته وقدرته على الفهم والتدبر في الخلق . والسر في ذلك أن ضروب المعرفة إنما تقوم على الملكات المحصلة وتعتمد على العقل المجرد (أي الفطرة) في إدراك الحقائق ولهذا كلف الله الإنسان عند

البحث وراء الحقيقة أن يجرد نفسه من جميع الآراء وما ألفه من العقائد و يعمل باسمه تعالى وحده ثم ينظر و يفكر : وهذه هى هداية القرآن تجريد النفس مما ورثته من العقائد والآراء ثم القيام بالملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط بنفسه . أو قل إن هذه القراءة هى مذهب الوحى الإلهى الذى ينفذ وحده إلى القلب السليم بسلطان غير ملحوظ و يؤثر فى الذهن الصافى ببرهان غير ملفوظ و يكون به تصوير الواقع وتقرير الحق .

حقيقة أن تجريد النفس ليست مسألة سهلة لكل إنسان . لأن الإنسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله . وأحمال البيئة فى البيت والمدرسة والمدينة والأمة والدولة . وأحمال المعتقدات والشهوات ليس من السهل عليه تطبيق هذا القانون . ولـكن التجريد يأتى بقوة الإرادة والانتباه والجد والمثابرة وموالاة النظر والملاحظة فى الطبيعة ولامشاحة أن المولى عز وجل قد أعد محمداً عليه السلام لذلك بالتحنث بأعلى جبل حراء من قبل الوحى فكان أمره له « إقرأ باسم ربك » أمراً قد صادف محله . وصدر لمن هو أهله وكفوه .

هذا أمر منه تعالى للانسان إلا أن فيه تشريفاً للانسان وعلوا لمنزلته عنده تعالى و إيحاء له أن يتعرف مكانته السامية بين سائر خلقه وصلته بها فيجد أنه تعالى قد جعله خليفة فى أرضه.«و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » . وخصه بنعمه « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

فهذا نفث بروح فى الإنسان يصل به إلى ذروة القوة والعزة . أو قبس من تلك الشعلة العظيمة شعلة الإسـلام ، التى أضاءت الـكون بنور الله وأتى به للإنسانية نبيه محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

الاسم :

يقول بعض اللغويين إن الاسم مشتق من السمو . فقوله تعالى « إقرأ باسم ربك » يجعلك تتمثل فى نفسك سمو الرب على المربوب وتتصور كمال تلك القدرة الآلهية فى الخلق وإتقان صنعه فيكون هذا حافزاً لك فى تأملك وتدبرك وسعيك فى الوقوف على نواميس الكون وخواص الكائنات .

ونقول إن الاسم هو اللفظ الذى يقيم فى الذهن صورة لمعلوم كأنما يرتسم فيه . أو الذى ينشىء فى المخيلة أموراً أو فكراً تتعلق بمدلول اللفظ فيكون معنى ثابتاً له. فهو بالنسبة لله تعالى ينقل لذهنك أموراً وفكراً من صفات وأفعال له سبحانه وتعالى بها تعرفه وتؤمن به. فأنت أذ تقرأ باسم ربك تستحضر فى ذهنك ماتعرفه لربك من صفات العظمة والجلال والقدرة والرحمة وسائر النعوت والأعمال مما يوجد فى نفسك قوة واستعداداً يعاونانك على القراءة المقصودة .

فكرة معنى الحال فى قوله « باسم ربك » :

وهناك أمر آخر وهو أنه إذا كان معناه الحال أى اقرأ مفتتحا باسم ربك فان الله تعالى شأنه أدب به نبيهُ الكريم بتعليمه تقديم ذكر اسمه تعالى أمام أفعاله وأقواله .. أى قال « بسم الله » ثم « اقرأ » وفى هذا أيضا دلالة كما قال فخر الدين الرازي على وجوب قراءة البسملة فى ابتداء كل سورة ونرى أنه لا بأس من قبول هذا المعنى أيضا مع المعانى السابقة وبخاصة لأن سور القرآن كلها مبتدأة بها إلا سورة التوبة (وحدها) لأنهـا نزلت لرفع الأمان عن المشركين والقول « باسم الله » أمان فالمقام فيها يقتضى عدم الذكر .

معانى أخرى :

و يقول العلامة فخر الدين الرازى أيضـا أن « اقرأ باسم ربك » . أى استعن باسم ربك واتخذ الاسم آلة لتحصيل هذا الذى عسر عليك . أو معناه اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما يحكم القاضى باسم الملك فيقول حكمت باسمه بكذا .

الباء فى « باسم ربك » :

لقد ورد فى القرآن الكريم غير « اقرأ باسم ربك » . قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » . و « تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام» . من غير الباء . فالباء اذن هنا مقصودة بالذكر وليست كما قال بعض المفسرين مثل أبى عبيدة بأنها زائدة إذ لا يصح أن يستعمل القرآن الكريم كلمات أو حروفا زائدة فانه تضييع لها من غير فائدة . والقرآن منزه عن اللغو حتى فى أقل حرف . وقد جاء فى كتب اللغة أن للباء أربعة عشر معنى منها الالصاق حقيقة أو مجازا ومنها المصاحبة ومنها المقاربة ومنها الاستعانة ومنها الاستعلاء ومنها القسم وغير ذلك وهذه الآية تحتمل للباء كل تلك المعانى وهى بكل منها تنير الذهن بفكرة من أجل الفكر . فكيف يقال انها زائدة .

ولا ريب أن من يجهد نفسه فى المعرفة والعلم والعمل يعمل لرقى الفكر الانسانى و يخدم معاصريه والأجيال التى بعده و بهذا فهو يعمل لربه أو باسم ربه .

وانك إذ تقرأ باسم ربك فانما تقرأ بروح منه تعينك على عملك وتكفل لك النجاح فيه . فتنفذ إلى أعماق هذا الكون وأسرار الوجود بفكر يقظ و بقلب مؤمن .

انك إذ تقرأ باسم ربك فكأنما هو وحى يوحى اليك علمه شديد القوى يسمو بك إلى الأفق الأعلى .

«اقرأ باسم ربك» . أى لتكن المقدرة التى تقرأ بها هى من ربك ولولا ما يمنحك من القدرة على القراءة الصحيحة من نظر وتأمل وفهم وتدبر فانك لا تصل إلى المعرفة الحقة والافادة النافعة. فاستمد القوة منه والعناية عنه مع رجاء فضله وابتغاء كرمه فى تنفيذ أمره . استعن به فيزيل عجزك ويساعدك على تمام عملك فانك تقرأ باسمه غير مستقل بنفسك . واسم الله إذا رافق أمرا كانت له قوة التنفيذ وليس ثمت ما يعترض النفاذ .

« اقرأ باسم ربك » . فلا تخضع فكرك لسلطان بشر مثلك ولا تقيد رأيك برأى غيرك . فان الأمر والرأى لربك وحده الذى تعمل باسمه فقم بعملك مراعيا مقاصده ومراميه .

عن قوله « ربك » :

ثم اننا نلاحظ أنه تعالى قال اقرأ باسم « ربك » ولم يقل باسم « الله » كما قال فى البسملة المعروفة « باسم الله الرحمن الرحيم » قال فخر الدين الرازى أن « الرب » من أسماء صفات الفعل و « الله » من أسماء الذات . فمع أن أسماء الذات أشرف من أسماء صفات الفعل . إلا أن الأمر هنا بصفة الفعل أبلغ لأنه أكثر أثرا فى الحث على الطاعة . ونقول إنه فى الآن ذاته يفيد الغرض من القراءة وهو التربية التى يتضمنها معنى الرب .

وأضاف الفخر سببا آخر وهو أن أول ما نزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال له اقرأ صار فى حالة من الفزع فهدأه واستماله ليذهب عنه الروع

بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك » فكأنه قال له إن الذى يأمرك هو الذى رباك فكيف يفزعك أمره .

وقال «فى هذا الخطاب أمران (أحدهما) ربيتك فلزمك القضاء فلاتتكاسل (والثانى) أن الشروع بالتربيــة ملزم للاتمام وقد ربيتك وصرت عارفا بى فلا تضيع عليك هذه التربية » .

وكأن الفخر يريد أن يقول بأنه تعــالى يعرفه بما قد هيأه له من الرسالة وأنه قد جاء وقت اتمامها والعمل بها .

ويقول أبو السعود فى تفسيره إن التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ التدريجى الى الكمال اللائق مع الأضافة الى ضميره عليــه السلام هو للاشعار بتبليغه الى الغاية القاصية من الــكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر وعلو شأنه به .

تقدير المسلم لكلمات هذه الآية :

ما ألذ كلمات هذه الآية على سمع المسلمين « اقرأ باسم ربك » لأنهــا أول كلمات هبطت على نبيهم من المقام الأعلى . وفيها مافيها من التشريف للمخاطب بها ثم ما أجمل مايرد على نفوسهم من خواطر حسان عند ذكرها فأن المخاطِب فيها هو صاحب الجلالة والمخاطَب الأول هو صاحب الرسالة .

وقد جمعتهما الإضافة فى لفظ ربك مع بعد ما بين الرب والمربوب . وصلة ما بين المحب والمحبوب ليقرأ باسمه تعالى ويستشعر عظمته ويستوحى قدرته . ثم ما أعظم الشرف الذى يسديه سبحانه للنبى عليه السلام بأن يعمل باسمه تعالى بهذا التعبير «باسم ربك» اذ فى اضافة الذات العلية بصفة الربوبية كأنما

يقول تعالى له « أنا لك سينالك منى النفع والعطف . أنى أنشأتك ودبرت أمرك ومنذ نعومة الأظفار وأنت فى رعايتى ملحوظا بعنايتى فأنبتك وفق ارادتى نباتا حسنا مشمولا بمحبتى والآن جاء الوقت الذى آمرك فيه بالعمل المنتظر أن يكون صدى لهذه التربية القيمة والرعاية السامية » .

فكم تبعث هذه الخواطر فى المسلم من البهجة والجمال وكم توحى الى نفسه من معانى التقديس والجلال له تعالى والحب والتقدير لنبيه عليه الصلاة والسلام.

الأب والرب :

يقول النصارى إن تسمية الخالق بالأب اشعار برأفته وعطفه ولكنا نقول ما قاله الشيخ محمد عبده رحمه الله « أن ما فى اسم الرب من معانى التربية والرعاية والعطف أعلى وأبلغ اذ أن معنى الأب يتضمن طلبه للولد بمقتضى شهوته لا لمجرد محبته » .

ويقول عمنويل كانت فيلسوف المسيحية الألمانى المتوفى سنة ١٨٠٤ أن الأب والأبن والروح القدس انما تدل على ثلاث صفات أساسية فى اللاهوت وهى القدرة والمحبة والحكمة . أو على ثلاثة فواعل عليا وهى الخلق والحفظ والضبط . وعلى هذا فهى فى عرفه ألفاظ لاتدل على معانيها المعروفة بها . ولا داعى اذن لاستعمالها فى غير ما وضعت له ليكون الناس على بينة من حقيقة معبودهم ووحدانيته بعيدين عن الضلال أو هذا التضليل .

ونضيف الى ذلك أن التعبير بالرب فيه التعميم بينما الأب تخصيص للولد وأيثار للفرد .

وهذا زيادة عما فيه من تحديد للمعبود وجعله متعلقا بالمادة فيشترك مع

ما هو من خلقه أو يشترك ما هو من خلقه معه . « وهو الله لا إله إلا هو تعالى الله عما يشركون » .

قوله تعالى « الذى خلق » :

حبذا قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق» فأنه لم يقصر أمر القراءة على اسم الرب سبحانه فحسب بل ألحقه بذكر أعظم أفعاله وهو الخلق أى باسم صاحب القدرة العليا والقوة العظمى والحكمة السامية والسيطرة القاهرة الموجد لكل موجود والواحد الذى انفرد بالأمر فى الوجود . وكأنما أمرك بأن تقرأ باسم من خلق فيما قد خلق . وجاء بالتنويه الدقيق واللامحة الراقية الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعظمته وحكمته وغيرها من صفات الكمال فيكون عملك بما يليق بهذا المقام الأسمى من تعمق فى كل بحث وتدبر فى كل أمر وتعدد ماتختاره من خلقه ليكون موضوع قراءتك جمادا كان أو حيوانا أو نباتا مما فى الأرض وما فى السماء .

الخالقية والوحدانية :

وأنه لما أطلق القول فى « خلق » بصيغة الماضى دون ذكر معمول لها يكون المعنى بغير تقدير المعمول أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لاخالق سواه لأنه جعل الخالقية وصفا مميزا له تعالى فهى صفة إلهية انفرد بها سبحانه فمس الوحدانية دون ذكرها أو التعمق فى أمرها وهذا له فى التعبير أكبر تأثير هو نوع من أساليب القرآن تصل بها المعانى الكثيرة المقصودة الى الذهن على أجلى وجه بقليل من الألفاظ ويكون لها أحسن تأثير . فقد وصف نفسه بفعله

« الذى خلق » و بمثل هذا الوصف ينساق الفكر إلى ماثبت له تعالى من الفعل فهى نكتة مفهومة من ذات العبارة لأنها تمثل المعنى المقصود فى ذات الموصوف فتفيدك أن وصف الرب تعالى « بالذى خلق » قصد به أن تكون القراءة فى خلقه — وهذا التعبير هو أيضاً أبلغ فى النفس شامل للمعانى الكثيرة الأخرى بخلاف ما لو قال اقرأ المخلوقات فيقتصر الأمر عليها أما هذا التعبير باسناد فعل الخلق اليه تعالى يجعلك تفكر أيضاً فى فاعل الخلق وما هو متعلق به تعالى من صفات يقتضيها هذا الفعل كالوحدانية والقدرة والإرادة والعلم وغيرها ثم ما يجر التفكير فى ذلك إلى بلوغ الإيمان الحق . إيمان يتمكن من النفس بالبرهان مصحوباً بالخضوع والإذعان لا إيماناً تقليدياً فما التقليد بإيمان .

ونخرج من ذلك كله أن مثل هذا التعبير إذا قرع الذهن بمفهومه يتناول الخيال ذلك المفهوم و يصوره بالصور اللائقة به و يكون له من التأثير فى النفس بما يناسبه .

ونعود الآن إلى فكرة معمول فعل «خلق» فانه اذا قدر له معمول يكون المعنى أنه الذى خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه أطلق ولم يعين معمولا بالذات وليس حمل الفعل على البعض أولى من حمله على الكل كقولك الله أكبر — أى أكبر من كل شيء . فيكون المعمول كأنما هو مذكور ومقول وأنه عام شامل لجميع المخلوقات . و بايضاح أوفى أن المعنى الأول بغير تقدير المعمول مقصود به ذات الخالق أما الثانى فمقصود به المخلوقات وكلاهما يفيد الوحدانية والإرادة والعلم والمقدرة والعظمة والحكمة وغيرها من الصفات التى تناسب « الخالق » جل وعلا . فما أبلغ هذا السكوت عن ذكر المفعول لهذا الفعل

« خلق » فى هذا المقام فهو من دقائق الإيجاز التى تحار فيها الأفهام وتعجز عنها قرائح الأنام وأنه بدلالته على العموم يشمل أيضاً كل ما هو مخلوق من كبير وصغير وجليل وحقير وحسن وقبيح خيره أو شره إلى آخر ماهو موجود ونحن الآن نقتصر على ذكر عقيدة الوحدانية من صفاته تعالى التى اقتضى المقام التنويه بها .

عقيدة الوحدانية :

أن المولى سبحانه وتعالى قد وضع بهذا الوصف « الذى خلق » تعبيرا دقيقاً مس به وحدانيته مساً رقيقاً . وحكمة الإشارة منه سبحانه إلى الوحدانية فى أولى الآيات نزولا هى لبيان أن أهم ما تشمله الهداية هو وحدانية المعبود التى يؤدى الاعتقاد بها إلى توحيد منازع النفوس إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه . أضف إلى ذلك أن فيه أيضاً توكيداً لنظام الرابطة بين الناس وعلاق بعضهم ببعض .

والمؤمن يشاهد التوحيد ماثلا فى كل شىء ينكشف له من تأميله إلى الخلق ومن نور الحق الذى يبهره بتفكيره فى خالقه .

ومهما يرى المتأمل من أشياء كثيرة فانه يراها على كثرتها صادرة من موجد واحد مبدع قادر مدبر حكيم عليم خبير بصير هو خالق كل شىء و بارئه ومصوره وله فيه الأمر كله .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وكما تمس عبارة « الذى خلق » قدرته وحكمته فهى كذلك تمس وحدانيته وصمديته .

هذا المس الدقيق الرقيق بوحدانية الله كأنما هو روح خفى يترقرق فى عبارة آية القرآن ويشع من هيكلها البيانى . ولا غرو فان عقيدة التوحيد هى دعامة الاسلام الأولى وقضيته الكبرى التى هى قضية الكون كله وأعظم شئونه فلم يفت أولى الآيات نزولا الألماع إليها بتعبير جميل أخاذ حركت به الوجدان والمشاعر مع تحريك الذهن لصلب القضية .

وأنت بأخذك العبارة على المعنى الثانى تستعمل مجازاً عقلياً بذكرك الذى خلق وتريد خلقه . فيكون معنى الآية أن قراءتك باسم ربك الذى خلق كل شيء . ولا غرو أن من شأن استعمال المجاز أن يفخم عليه المعنى . وهذا يؤدى بك إلى تبين الآثار الربانية البالغة منتهى النظام وغاية الأحكام الدالة على جلال خالقها وقدرة مبدعها فتنزهه تعالى عن كل شريك او ضريب إذ لو كان هناك آلهة غيره ما استقام للأرض والسموات هذا النظام وهذا الإبداع سالماً من كل ما يشو به أو يفسده « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

تفكروا فى خلق الله . ولا تتفكروا فى ذاته :

ويلاحظ أيضاً أنه تعالى لما أردف لفظ الرب « بالذى خلق » أى الذى قام بفعل الخلق كأنه أمرك أن تنظر فى فعله وتفكر فيه لا فى ذاته تعالى وهذا سر قول النبي صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله تعالى » . وذلك لأن العقول تتحير فى التفكر فى الذات فلا تطيق مد البصر ولا أشغال البصيرة وتقع فى الاضطراب والدهش والحيرة فالصواب أن لايتعرض الإنسان لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه بما أن عقله لايحتمله وقد يخرج بالفكر إلى الكفر معاذ الله « أن الإنسان لجهول ظلوم كفار » وكفاه

أن يشاهد فى الخلق العجائب والغرائب التى تظهر قدرته تعالى وحكمته وجلاله وعظمته .

معنى الخلق والابداع وأثرهما فى الوجود :

ومعنى « الخلق » لغة التقدير ولكن الإيجاد من العدم يطلق عليه « الإبداع » قال تعالى « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . وقد استعملت «خلق» هنا فى أداء المعنيين من باب التغليب فما هو واقع تحت حواس الإنسان هو نتيجة الإبداع والخلق معاً ومن الصعب على الإنسان أن يتصور عدم الوجود بعد أن أدرك هذا الإبداع إذ هو يرى الوجود ويشعر به بفضائه وما هو كائن فى فضائه . أى الموجود الحسى والموجود غير الحسى إذا صح هذا التعبير . ولكنه إذا تخيل فناء ما هو كائن فى الفضاء (أى الموجود الحسى) فليس يسهل عليه تخيل فناء الفضاء ذاته . وضعف الإنسان حاصل فى إدراك هذا الفناء الشامل أى الرجوع إلى حالة العدم السابق على الإبداع (أى بمحو الموجود غير الحسى أيضاً) وأنه بسبب هذا الضعف فى الإدراك وعدم التنبه له ضل كثير من الطبيعيين وغيرهم و بعدوا عن الحقيقة فى معرفة الله تعالى وصفاته ووصفوه بغير مايليق . بمايفيد الشرك به « سبحان رب العزة عما يصفون » . « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

صلة الإنسان بخالقه جل جلاله :

وهذه الآية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » توضح فى ذات الآن الصلة بين الخالق و بين المخلوقات ببيان أن الكل من خلقه تعالى . كما تفصح عن صلة

ما بين الإنسان وربه . صلة مباشرة لا وساطة فيها بينهما . فهى تحوى أحسن تعبير فى شؤون الحياة وفى الدين معاً أو قل أن هذه الآية كلها فلسفة حكيمة وهداية قويمة كثيرة المعانى وعظيمة المقاصد .

حاصل الآية :

وحاصل القول فى هذه الآية « اقرأ باسم ربك الذى خلق » أنها تأمرك بالتأمل والتفكير العقلى الحر فى الكائنات وأن يكون تأملك وتفكيرك باسم ربك فلا تتسرع فى الاستنتاج بمجرد أن تظن أنك وقفت على الحقيقة بل تعمق فى البحث ولا تحيد عن المنطق السليم .

فالفلسفة فى هذه الآية مبنية على النظر الصحيح والمنطق السليم ويستفاد منها أن بين الدين والفلسفة علاقة وثيقة لا انفصام لها .

وقد أعطت هذه الآية للعقل الحرية فى تفهم الأشياء وتعرفها فكان لها الأثر الكبير فى تكوين الفكر الأسلامى . فمذهب الأمام أبى حنيفة النعمان مثلا يعتمد فى التشريع على الرأى ونظر العقل واجتهاده . ومذهب المعتزلة فى علم الكلام قد أعطى للعقل كل الحرية فى تفهم النصوص القرآنية وتأويلها بما يتفق والعقل فى دائرة أصول الدين وعقائده العامة التى لاريب فيها . أما فى الأديان الأخرى فأن رجال الدين كانوا وما زالوا يصدون الناس عن التفكير العقلى الحر بل أنهم يصدون أنفسهم كذلك ويعتبرون أن ما وجدوا عليه آباءهم أسراراً لاهوتية وأموراً فوق طاقة الأنسان أدراكها .

وتفيد الأية كذلك أن العلم لا ينمو ولا يتطور إلا فى جو من النظر الحر والاستقلال عن الاعتبارات الاعتقادية وقد حاطه الإسلام بحوائط تحميه شر

الجمود والرجعية . وقد مضى العلم فى الأمة الأسلامية حراً طليقاً من جميع القيود بما لم ير مثله فى أمة من أمم العالم ويكاد لا يصدق ذلك من لا ألمام له بتاريخ العلم فى الأسلام .

لقد حث القرآن على النظر فى الكون إجمالا ثم تفصيلا حتى قدح فى الذين لم تؤثر فيهم آيات الكون ولم تبعثهم على التفكير فقال «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» . كما حض الناس على إيقاظ غريزة التأمل فقال فى آيات عديدة «لقوم يفقهون» «لقوم يعلمون» «أفلا يعقلون» «أفلا يتفكرون» «لعلهم يتفكرون» لكل آية وما يناسبها فى بحثها عن طريق التفقه أو العلم أو التفكير وهكذا ، وسرد من عجائب المخلوقات النباتية والحيوانية والأجرام السماوية ما يصعب حصره . كما بين مكانة العلماء والباحثين الذين يقومون بدرس آياته الكونية أو غيرها وفضلهم على غيرهم حتى قال «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وقال «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وهذه أشادة كبيرة بالعلوم اختص بها الإسلام . فأذا كان لأمة أن تفخر بمالها من فضل فى إيجاد حرية التفكير والرأى و إفساح المجال نحو العلم وترقى العقل فهى الأمة الإسلامية . وتفخر كذلك للأسس التى بنى عليها الإسلام فهى أسس المدنية الفاضلة والسعادة الإنسانية .

مدلول الآيتين معا — أقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق :

لعل المقصود من الآيتين معا « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق

الإنسان من علق » تنبيه الأذهان إلى مايثير الاعجاب بخلق الإنسان والتنويه منه تعالى بايماء ورفق إلى وجوب مقارنة عمله فى خلق الإنسان بعمله فى خلق سائر الكائنات وكأنما جعل الإنسان خلقا آخر وعالما ممتازا وأن كلا من العالمين جدير بدراسة خاصة . ولا غرو فأنه ميز الأنسان بخواص كالعقل والنفس وغيرها .

ولقد أشار سبحانه الى هذه الفكرة فى آية أخرى من آيات خلق الأنسان بقوله « ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » بما لا يوجد مثلها لسائر المخلوقات فصار بها عالما ممتازا . ثم أن المخلوقات الأخرى فى الكون تختلف عن طبيعة الإنسان إذ أنها كلها تسير بحركة آلية أو شبه آلية مدفوعة فيها بقوة عظيمة ولا إرادة لها فيها . بينما قد خلق الإنسان وله إرادة تجعله حرا فى حركاته وتصرفاته. ثم أن له علقاً أى روابط بغيره تقتضيها إنسانيته وجعل له العقل لأجل تدبير هذا العلق . العقل الذى أعطاه به الإرادة والنفس الحرة . ثم أنه جعل المخلوقات الأخرى مسخرات له وخصه بميزة التمتع بجميع مافى الأرض ومنحه قدرة على العمل فيها بالتعمير والتجميل والتركيب والتحليل والتسخير والتذليل متدرجا فى وسائله ومرتقيا فى أعماله إلى ما يريد تعالى له الوصول إليه من درجات الكمال .

وقد بين الله تعالى له من أجل ذلك سبيل معرفة الكائنات وحثه على تعرف حقيقتها بدراسة خواصها وطبيعتها ليتمكن من الحصول على موادها ومن تسخير قواها بقوله تعالى « إقرأ باسم ربك الذى خلق » والإنسان فى تدرجه وارتقائه محتاج للعلوم لتسهيل سبل هذا التدرج والإرتقاء وتقريبها إلى حذقه ومهارته فكان من كرم الله تعالى أن يسرهاله وأمره أيضا بدراستها دراسة عامية.

فقال « إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

ويلاحظ أن آية « خلق الإنسان من علق » ، بجعلها بهذه الصيغة وفى هذا الموضع بين آية « إقرأ باسم ربك الذى خلق » و بين « إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم» قد أوجد تعالى بين الأيات جميعاً اتصالا متينا وأظهر مافيها من دقائق المناسبات. كما تفيد كلها أن الإسلام دين رقى وتوحيد واجتماع . فما أبدع الكلام فيها على اتصاله وترتيبه وانتظام جواهره فى سلك أسلوبه . فهذا ضرب من ضروب بلاغة القرآن وفن من فنون إعجازه منتشر فى آياته إذا أمكن للبشر الإشراف عليه فلا يمكنهم البلوغ اليه . ولا ريب فأمثال هذه الآيات لاتصدر إلا من عند الله جل وعلا وقد بدأ بها التنزيل الحكيم هداية للانسان . وهى تحمل له معانى كثيرة تجعله يتوافر على بحث طبيعة الكائنات وطبيعة نفسه وشق الحجب عن أسرار خلقته ومعرفة مستلزمات إنسانيته وعلاقته بخالقه وغير ذلك من أفضال الله عليه .

تخصيص الإنسان بالذكر أيضا :

ويقول أيضا بعض المفسرين إن تخصيص الإنسان بالذكر فى هذه الآية هو لأن التنزيل اليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض . وقال آخر إنه أبهم أولا بقوله «الذى خلق » ثم فسر بقوله «خلق الإنسان من علق» تفخيما لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته . ولعل هذا المفسر يريد القول بأن هذا استئناف بيانى . وقال بعضهم « قد يكون المقصود بيان ناحية الفائدة من القراءة . أى أنه لما أن خلق الإنسان من علق كان من الضرورى له معرفة ما يصون هذا النوع من الخلق و يرقيه» وان ذلك يكون بالقراءة المذكورة أى بدراسة طبيعة الكائنات للانتفاع بها فى وجوده ومعرفة أثرها فيه .

فأنت تجد أنه بارتباط آية «خلق الإنسان من علق» بما قبلها و بما بعدها تــكوّن جميعا طائفة ملتئمة من الفكر . وكأنما يقول تعالى بعد قوله « إقرأ باسم ربك الذى خلق » . وكذلك إقرأ خلق الإنسان مراعيا أنه تعالى خلقه من علق .

وتكون هذه القراءة عبارة عن البحث فى ذات الحياة الإنسانية وفى علاقة الإنسان بموجودات الكون ومكانته منها وحاجته لمعرفتها ووجوب دراستها وعلاقته بخالقها ، وقد عبر القرآن عن كل ذلك بهذه الآية المحتوية على أربعة ألفاظ فقط ولـكنها أدت كل هذه المعانى الغزيرة بربطها مع الآية السـابقة والآيات اللاحقة وهذا فوق ما تفيده بذاتها وحدها .

آية « خلق الإنسان من علق » وما تفيده وحدها :

ولا غرو إذ كانت دراسة خلق الإنسان فى مقدمة واجبات الإنسان . قال تعالى « أو لم يتفـكروا فى أنفسهم » (سورة ٣٠ — ٩) ومعنى هذا أو لم يتفـكروا فى أمر أنفسهم فانهـا أقرب إليهم من غيرها ومرآة يتجلى فيها المستبصر ما يجتلى فى الممكنات بأسرها . قال عليه الصلاة والسلام « أعرفـكم بربه أعرفـكم بنفسه » وها هو ذا سقراط يقول « إن غاية الفلسفة أن يحيط المرء علماً بنفسه وأن ذلك أحق بالتقـديم وأسبق فى استيجاب التعظيم . وأنه لاعرفان إلا وذلك هو السبيل إليه ولاعلم إلا وهو الدليل عليه ولا معرفة إلا وهو مفتاحها ولا حقيقة إلا وهو مصباحها » .

ولننظر الآن لألفاظ الآية فيلاحظ أن ما فى لفظ الإنسان من زيادة الألف والنون على لفظ « أنس » يفيد زيادة فى معنى مدلولها — فلفظ « إنسان » يدل على كمال فى الإنسانية .

ومن جمال اللغة العربية أن الكلمة تحمل معناها فى طيات أجزائها و بين ثناياها . فالأنس والإيناس أو الائتناس والاستئناس من مستلزمات الإنسانية وعناصرها الأولية إذ أن من طبع الإنسان وخلقه أنه لا يحاول له العيش منفردا بل هو محتاج من أجل أن يعيش كانسان أن لا يكون منفرداً بنفسه ومنعزلا عن بنى جنسه بل مؤتنساً ومتسانداً بغيره وقد خلق من علق بسائر الكائنات اجتماعياً بطبيعته . أو على حد قول ابن خلدون « مدنى بالطبع » .

معانى كلمة « علق » :

والكلمة علق معان كثيرة .

جاء فى قاموس أقرب الموارد :

علقه وعلق به علوقا وعلقا وعلقا وعلاقة هواه وأحبه .

وعلق يفعل كذا طفق وهو من أفعال المقاربة .

وعلق امرأة مال إليها قلبه ومن أمثال العرب « نظرة من ذى علق » أى ذى حب .

وعلق الشيء بالشيء . وعلق عليه . وعلق منه . ناطه وجعله متعلقاً .

والعلق أيضاً اسم جنس واحده علقة وهى الدويبة (أو الجرثومة)

ومما جاء فى لسان العرب .

علق بالشى علقا نشب فيه قال جرير :

إذا علقت مخالبه بقرن   أصاب القلب أو هتك الحجاب

وفى الحديث « فعلقت الأعراب » أى نشبوا وتعلقوا .

والعلق النشوب فى الشيء . وعلق الصيد فى حبالته أى نشب .

ويقال علق بقلبه أى أحب وشغف . فعلقها علقا أحبها . وهو الحب الملازم للقلب أو الهوى .

ونخرج من هذا كله . أن معنى العلق صلات الحب والمودة وعلاقات الألفة والمعاونة وغير ذلك مما فيه معنى التعلق والارتباط والنشب والمقاربة .

كما أنها اسم جنس لتلك الجرثومة المستحدثة من النطفة .

اعتبار العلق اسم جنس للجرثومة :

على هذا المعنى الأخير تـكون الآية قد أشارت إلى خلق الإنسان من تلك الجرثومة التى تخلق منها الحيوانات أى أن الإنسان مثلها فى أصل خلقتها لا يمتاز عندئذ عنها وإنما يأتى امتيازه بعد ذلك — وكما قال المرحـوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر . «الحيوان على العموم هو وليد اتحاد بويضتى فردين الذكر والأنثى (علقهما ببعض) المعبر عنه فى علم الحياه (Biology) بالتلقيح . وهو عمل كبير الشأن فى تخليد معظم الأحياء . ولا جرم إذا كان تمسك الطبيعة به هو السبب الذى أدى إلى التفريق بين الذكر والأنثى والاحتفاظ بميزات كل منهما وفقا لما تتطلبه الحياة من البقاء والاستقرار» وعلى هذا يكون معنى خلق الإنسان من علق أى من علق هاتين البويضتين أحـداهما بالأخرى . ويحصل تكوين العلقة من هذا العلق . فتسميتها بالعلقة جاءت لها بسبب هذا العمل .

وهناك معنى آخر وهو أن الله جعل فى رحم المرأة موضعاً خاصـاً مهيئـا لحياة النطفة كمستقر أو قرار مكين لها وموضعا آخر لحياة العلقة بعده تنتقل إليه كمستودع لهـا . قال تعالى « وهو الذى أنشأكم من نفس واحـدة فمستقر

ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

فمتى نشبت العلقة فى هذا المستودع الأخير وعلقت به ضمنت حياتها ثم صارت بعد ذلك مضغة . فاسمها علقة جاء لغة من فعلها وهو هذا العلق بمستودع الرحم . وقد قال تعالى «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وسواء أرادت الآية أن الخلق جاء من هذا الفعل وهو علق البويضتين بعضهما ببعض أو من فعل علقها بالمستودع فى الرحم أو من ذات الجرثومة المسماة علقة فإن كلمة علق هى أفصح كلمة لتأدية هذه المعانى الثلاثة .

ويقول المفسرون مايفيد أن الآية بذكرها خلق الإنسان من علق هو خلقه من تلك الجرثومة وأن الآية تلفته إلى ما كان عليه فى بدء خلقه ثم إلى ما صار إليه من كمال خلقته التى امتاز بها على الحيوان .

الإنسان ليس حيوانا :

ونحن نقول إن بعد تعبيرات القرآن البليغة الخاصة بالإنسان لايصح معها أن نجعله من جنس الحيوان . وأن يقال فى وصفه بأنه حيوان ناطق أو حيوان مفكر أو ما شاكل ذلك لمجرد أن طريقة خلقته فى بدايتها شاركت خلق الحيوان فأن عقله وإرادته ووجدانه وعواطفه ونزوعه إلى الطموح للتسامى وسائر ميوله التى أوجدها الله فيه بعد تكوين جسمه والتى لم يوجدها فى سواه كلها تسمو به على هذا الإعتبار فهو مخلوق وحيد فى نوعه Sui generis ويكفى أن الله تعالى فى آية بيان خلقه له قال « ثم أنشأناه خلقا آخر » فلا غرو

فبعد هـذا الإنشاء الجـديد صار خلقا آخر لا مثيل له « فتبارك الله أحسن الخالقين » . فهذا القول أنشأناه خلقا آخر يدل على أن الإنسان المخلوق أولا على طريقة خلق الحيوان قد تغير تغيراً كلياً . وانفرد بتراكيب وطبائع ليست لغيره من المخلوقات فلا يصح اذن قياس خلقته بعد ذلك بخلقة الماديات الأخرى أو اعتباره فى عداد الحيوانات . والقـول بغير ذلك يكون مكابرة فى حقيقة خلقة الإنسان وقد أنشأه تعالى خلقا آخر ميزه به على سـواه ولا داعى للقول بأن هناك حلقة مفقودة أو غير مفقودة كما يقول درون أو غيره من الباحثين. ويظهر أن العلامة ماكس موللر قد توصل بأبحاثه إلى شيء من هذه الفكرة فإنه يقول بأن العقل (أو البصيره) هبة عريقة فى الإنسـان وإننا مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء نتبين أن منحة العقل السليم البصير كانت من خصائصه منذ أوائل عهده وأن القول بانسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنما هو قول لن يقوم عليه دليل .

ذكر خلق الانسانه فى آيات أخرى :

وذكر تعالى مسألة خلق الإنسان فى آيات كثيرة غير هذه الآيات منها قوله فى سورة السجدة (س ٣٢ — ٨ — ١١) «الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسـان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحـه . وجعل لـكم السمع والأبصـار والأفئدة قليلا ما تشكرون» . وقال تعالى فى سورة الروم «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » . فالإنسان فى بداية خلقه ما أحقره وأضعفه ثم بعد إنشائه نشأة أخرى واستكمال خلقه ما أجمله وأقدره . وقال تعالى «هو الذى خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » (صورة التغابن — ٩٤)

وقال تعالى فى آية أخرى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (سورة النمل — ١٦) .

سمو آيات القرآن على سائر الكلام :

ومن هذا البيان يتضح أن هذه الآية « خلق الإنسان من علق » تعطى حكما بذاتها مستقلة عن سواها خاصاً بخلق الإنسان . كما تعطى بترتيب وضعها وصلتها بما قبلها و بما بعدها معانى أخرى ، وهذا ضرب آخر من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام ذلك أنك تقرأ الآية فى بيان حقيقة أو قاعدة أو حكم أو عظة أو عبرة تاريخية فتجدها مستقلة بذاتها تفيد معنى حكيما . وتجدها باتصالها بما قبلها قد أتمت حكما أو أزالت وهما ، وهكذا ، ومن هذا القبيل أية «خلق الإنسان من علق» فهى تشمل أمراً مستقلا وهو أن الإنسان خلق من تلك الجرثومة أو أنه خلق اجتماعياً بطبيعته . ومع ذلك فورودها بعد قوله « إقرأ باسم ربك الذى خلق » فيها إتمام لسياق الهداية وتكميل للبحث المراد بالقراءة وهذا من الأساليب القرآنية الرفيعة مما تستحليه الأذواق وتنفعل له الأفئدة . وعلى حد قول بعضهم يكاد أسلوب آيات القرآن أن يكون شبيهاً بحياتنا فى الأيام . فكل يوم من أيام حياتنا وحدة كاملة نحياها حياة مستقلة .

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

لكن الحياة مع هذا مرتبطة بما سبقها . ومنتظرة لما سيليها . فتجدها نتيجة مترتبة على الماضى وتكملة لما بدىء فيه . ثم تعلم بعد أن يصير يومك أمس أن حياة ذلك الأمس كان ينقصها ما تم فى غده . فهكذا استقلال الآيات القرآنية.

وهكذا ارتباط بعضها ببعض . وهى قدرة حكيم عليم فى الأمرين فى الحياة وفى الآيات .

اعتبار العلق بمعنى العلاقة والارتباط :

ولاعجب فقد جاء القرآن بأساليب منوعة وفنون جميلة فى البيان تهتزلها النفوس وتطرب بها القلوب . وقد أطلق اللغة من عقالها حرة فى التعبير عن المعانى الواسعة بالقليل من الألفاظ حتى بلغ بهذا الإيجاز حد الإعجاز «أنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون» وها هى هذه الآية «خلق الإنسان من علق» بإفادة لفظة « علق » لمعانى التعلق والإرتباط والميول والصلات تعطى معانى ما أجلها وأجملها وأبدعها وأحكمها ولقد تعمق كثير من الفلاسفة والعلماء فى بحوث علم الإجتماع وتكلموا عن روح الإجتماع والعقد الإجتماعى وقالوا أن الإنسان إجتماعى بتكوين خلقته . ووصفه آخرون بأنه مدنى بطبيعته . ومنهم من بحث فى علاقة الانسان بالطبيعة وسائر المخلوقات . ومنهم من تكلم عن علاقته بخالقه جل وعلا . ولكن لم تصدر جملة جامعة شاملة لكل هذه البحوث ومعانى مبادئها مثل هذه الآية الحكيمة « خلق الإنسان من علق» التى لا يمكن أن يأتى إنسان بمثلها أو ما يدانيها . نجد أنه تعالى أطلق لفظة علق غير معرفة وبغير قيد أو وصف . ومعلوم أن إطلاق اللفظ هكذا يجعله جامعا شاملا . والواجب لمعانى القرآن تقرير صفة العموم والشمول فيجدر ألا نقصر الآيات على معان خاصة أو نحصرها فى إفادة أمر ضيق خاص ما دامت كلماتها أو جملها تحتمل معانى كثيرة يتجلى بها أفق واسع وعلى هذا فالآية تفيد أيضا فوق أن الإنسان خلق من جرثومة أن الله تعالى أوجد الإنسانية من علاقات الإنسان العديدة المنوعة . ثم ما أدراك ماهى هذه العلاقات؟ هى روابط

كثيرة لمقتضيات الحياة تعرفها وتقف على كنه كل منها كلما فكرت فى عيشتك وأعمالك . وكلما أمعنت فى الأمور وأزددت علما بشؤون الحياة وجدت أن هذه الروابط لا عد لها ولا حد لبعد مداها وما أبلغ قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ولا مانع مطلقا من إرادة المعنيين معا — الجرثومة والروابط — فإن كل ماتدل عليه عبارات القرآن من المعانى الحقيقية والمجازية والكنائية يجوز أن يكون مرادا بها مجتمعة تلك المعانى أو منفردة ما لم يمنع مانع من ذلك كأن تكون تلك المعانى مما لا يمكن اجتماعها شرعا اوعقلا فحينئذ لايصح أن تكون كلها مرادة وهنا الحال ليس كذلك .

ثم أن العلق أو الارتباط إذا لم يتحدد يكون هو ما بين الناس كافة بعضهم لبعض وهو المعروف بالتضامن الإجتماعى . وما بين الناس وخالقهم وهو الاعتقاد به والعبادة له . وما بين الإنسان وسائر المخلوقات وهو عبارة عن حاجته للأشياء ورغبته فيها لمقتضيات عيشه . وهو العامل الإقتصادى أو الدافع المادى الذى جعل الإنسان علقاً بالمادة يحيى بها وتحيى به .

وفى الواقع أن هذه الآية تحتمل كل أولئك وزيادة بل الواقع أن الإنسان لا يمكنه أن يتحلل من جميع هذه الروابط لأنها من طبيعة الحياة الإنسانية ومستلزماتها . ولا بدع فإن ذكر الله تعالى لها فى بداية الهداية إنما هو لمراعاتها والاهتمام بشأنها وتنظيمها و إتقانها وليتجه الإنسان للسير بها على الوجه الأكمل . فهو تعالى قد بين أن حياة الإنسانية حياة صحيحة سعيدة إنما تبنى على ترابط اجتماعى وثيق العرى فيكون على الإسلام تحقيق هذا الغرض بإيجاد العوامل وتنظيم الوسائل التى تضمن حسن سير هذا الإرتباط . من صداقة روحية ومادية ومحبة وأخوة وتعارف وتآلف ومعاونة ومساعدة بين

الناس جميعاً حتى لا تنفصم للمجتمع عروة ، أو تنقض له وشيجة فيكون المؤمن المؤمن حقيقة كالبنيان يشد بعضه بعضا و يتحقق قوله تعالى « إنما المؤمنون أخوة » ولقد تحقق فعلا فى الإسلام هذا الأخاء الإجتماعى وكان لهذه الهداية القرآنية أثر كبير بين المسلمين و بما قام به النبى عليه السلام اتباعا لها بأعماله وأقواله و بما شرع الإسلام من أحكام تحلى بها المجتمع فى أدوار حياته وأحاطها بحوائط كالئة ومناعات واقية وعوامل للتطور مؤاتية مما سمح للمسلمين أن يمثلوا فى تاريخ الأنسانية أرقى دور مثلته أمة ووصلت اليه فى أقصر وقت فأوجدوا حضارة راقية قامت على الأصول الاجتماعية الصحيحة وقواعد الآداب السامية والمبادىء العالمية القويمة الجديرة بكرامة الإنسانية .فانظر إلى دقة وضع الصورة الإنسانية فى هذه الآية وأحكام وصف خصائصها كيف يرسمها التعبير القرآنى فى بضع كلمات أو فقرة من الفقرات — آية صاغها فى أربع كلمات لكن تفصيل معانيها لا تكفى له مجلدات — وعلى حد قول الأستاذ سيد قطب « أن فى تصوير القرآن من الإبداع ما يرتفع فوق ما تستطيعه الريشة المصورة والعدسة المشخصة ومن المدهش أن الأداة المصورة لهذا الإبداع هى ألفاظ جامدة . لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر وفى هذا من أسرار الإعجاز ما لا يستطيعه إنسان » . ومما لا شك فيه أنه تعالى أراد بهذه الآية تنبيه الإنسان إلى ما يحقق به وجوده الإنسانى فاذا ما عرف أنه خلق من علق وجب عليه أن يحسن هذا العلق و يوطده فيما بينه و بين أخيه الإنسان فمن كان فى استطاعته أن يجعل أعماله وحياته وسيلة لإسعاد الناس واحياء نفوسهم و إدخال السرور عليهم فلا يضن بذلك ليزداد و يتقوى علقه بهم وعلقهم به . أنه لو اتبع كل فرد هذا السلوك مع غيره لعاش الناس أهنأ عيش وتحقق هذا العلق بأجمل

معانيه على الوجه المقصود من قوله تعالى « خلق الإنسان من علق » . كما أن هذه الآية أفادت ضمنا النهى عن التفرق والاختلاف وجاء لذلك تفصيل فى آيات أخرى كثيرة تفيد هذا النهى باشد النهى منها قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقوله « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وقوله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء » وقوله « ولا تكونوا من المشركين — من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » وغير هذه الآيات كثير حقق الله المسلمين شريف مقاصد هذا الدين .

أعطاء آيات القرآن كل ما تحتمل من المعانى :

ولأن كانت العصور الأولى للاسلام لم تساعد السلف على الوقوف على مقاصد بعض آيات القران كاملة فإنه لا عذر لنا وقد كشف الزمان اللثام عما لم يكن ظاهرا فيها بتقدم العلوم ودراسة الطبيعة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والشرائع وغـــيرها حتى لقد صار لكل منها علم خاص بل علوم كعلم النفس (psychology) وعلم الحياة (biology) وعلم الاجتماع (Sociology) وعلم الأجناس (anthropology) رغيرها وغيرها وقد افادت جميعها أن الإنسانية عبـارة عن علاقات وروابط بين كل الناس أفراداً وشعوباً وبين الإنســان والكائنات الأخرى أو إن الإنسانية ليست إنسانية إلا بهذه العلاقات .

والمقصود من هذا البيان أن الناس تتفاوت فى مراتب الفهم فى نصوص القرآن وأن منهم من يفهم من الآية حكما أو معنى ومنهم من يفهم منها أكثر وكلما كان متمكنا من العلوم كان ذلك معيناً له على الفهم وهادياً للصواب .

فروح الإنسانية وخلق الإنسانية وطبيعتها وقوتها وقدرتها بل حياتها كلها من «علق» فهذه الآية بجملتها الصغيرة ونغمتها العذبة تدعو الإنسان إلى إخوة بشرية بالاتحاد والتعاون والتضافر — تعرفه أن حياة الفرد بالجماعة وأن حياة الجماعة بالفرد وتجعله يحفل بالسعادة بإنسانيته ويبتهج بها لشعوره بوجوده عضوا فى جماعة مرتبطة متساندة مسؤول بعضها عن بعض فى الحياة .

مبادىء العلوم فى آيات القرآن :

ونخرج مما تقدم لنا ذكره أن كلمة «علق» بوضعها فى آية «خلق الإنسان من علق» تفيد معانى كثيرة وتحتاج لشرح طويل لامعنى واحد كما عبر عنها بعض التفاسير — وأن فى القرآن من افادة المبانى القليلة للمعانى الكثيرة بمعونة السياق والأسلوب القرآنى مالا يخطر على بال أحد من كتاب البشر وعلمائهم ومثل هذا ما تجب العناية ببحثه وبيانه — يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز «أن كون القرآن معجزاً ببلاغته يوجب علينا أن نجعل أسلوبه الذى كان معجزاً به فناً ليبقى دالا على وجه أعجازه» — وهنا نرى أن ارشاد الله إيانا بآية خلق الإنسان من علق» يوجب علينا أن نجعل هذا «العلق» علما من العلوم فندونه ونتعمق فى مباحثه لنستبين كل مافى هذه الآية من الهداية والارشاد على الوجه الأكمل وكذلك مسائل كثيرة فى آيات القرآن الكريم كسنة الله فى قوله «قد خلت من قبلكم سنن» وهكذا وعلى هذا يجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم من علمائها يبينون لها أمهات المسائل ويجعلون لكل منها علما كما فعل السلف فى غيرها من العلوم والفنون التى أرشد اليها القرآن بالاجمال ويبنوها بالتفصيل عملا بارشاده كالتوحيد والفقة وعلم

الأصول وغيرها من علوم القرآن المعروفة للآن والواقع أن آيات القرآن حوت مبادىء علوم شتى كثيرة لم يستكمل العلماء الى الآن بعضها والوقوف على مافيها — تنكشف لمن صفت أذهانهم وتطهرت نفوسهم «إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون»

الحالة الاجتماعية وقت ظهور الاسلام :

كانت الحالة عند ظهور الإسلام فوضى اجتماعية واقتصادية والناس فى حروب ونهب وسلب و إميالهم فاسدة وعقائدهم مضلة — الكل طامعون وعلى غير هدى لا يدرون كيف يحصلون على أرزاقهم بالطرق الشريفة وعلى خلاف فيما بينهم . وكانت جزيرة العرب أكثر الأقطار فوضى فتعهد الرسول عليه السلام تلك العقول وهذه الخصال بالتعليم والهداية حتى أدركت وتهيأت لقبول الإنقلاب الإجتماعى والإقتصادى ثم الإتجاه نحو النظام والاستقرار الذى سعى فى إيجاده بعد هجرته إلى المدينة (يثرب) حيث استتب له فيها الأمر — فبدأ حياة سياسية اجتماعية واقتصادية ووضع لها فيها أسس النظام والشريعة فحسن حال الناس وشعروا بفضل الإسلام . وتتبين حقيقة ذلك من وصف جعفر بن أبى طالب حين مثل بين يدى نجاشى الحبشة وقد هاجر اليها هو وطائفة من المسلمين هرباً من تعذيب قريش لهم وفتنتهم عن دين الإسلام حيث قال «أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا

بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات . .. الخ »

ثم كان أول شىء قام به عليه السلام بعد هجرته إلى المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار وصرح لهم بأنه لا يكمل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه فبادر كثير من الأنصار بالنزول عن نصف أملاكهم وأموالهم للمهاجرين — وهكذا بنى النبى عليه السلام الاقتصاد والاجتماع فى الإسلام على أسس من الأخاء والتعاون قضت على الأثرة والغدر والحسد والغش وكان أول مظاهر هذا الأخاء الذى تحدثت به الناس وانتشر وذاع ما كان على أثر تلك الهجرة وهو ما قام به الأنصار من إيواء إخوانهم المهاجرين ونصرتهم وكيف كانوا يؤثرونهم على أنفسهم حتى امتدحهم القرآن الكريم « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ». فهو أخاء وصل إلى حد الإيثار والتضحية .

وبدأ عليه السلام يعالج التجارة ويرشد الناس إلى عظيم خطرها وهى أعظم مظاهر الحياة الاقتصادية فيقول « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » . وبين الحلال والحرام فى المعاملات فكفت طوائف كانت تجارتهم فى النساء والخمور والتعامل بالربا وجمع الثروة بالمقامرة وما شاكل ذلك فبحثوا عن الأعمال الشريفة سواء فى التجارة أو الزراعة أو غيرهما لتعود عليهم بالكسب الحلال ونزل القرآن بقطع يد السارق فأمن الناس واطمأنوا وساروا يغدون ويروحون بين وديان الجزيرة يحملون المتاجر والأموال فى حراسة الله وظل السلطة المنفذة الممثلة فى رسوله وجند المسلمين .

وحظر القرآن التلاعب بالأسعار والميزان والمكيال بقوله «فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم » . وقال «ويل المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » وقال « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . فبذلك انتظمت الأسواق وحسن التعامل وعاد ذلك بالربح الوفير على أصحاب رؤوس الأموال وعلى الصناع والعمال وحسن علق الناس بعضهم ببعض فضلا عما بينه القرآن من قواعد الشرع وأحكام السلم والحرب وغيرهما وانتقل ذلك بعد إلى سائر الأقطار .

عهد جديد للانسانية افتتحه الاسلام :

افتتح الإسلام بهذه الآية « خلق الأنسان من علق » عهداً جديدا للانسانية . عهد مدنية فاضلة للعالم أجمع يكفل الأخاء والمساواة وحق الانسانية الكامل فى الحرية والسلم . حضارة عالمية أساسها مبادىء العدالة للجميع والحق والفرص المتكافئة للجميع فان الناس كلهم فىالانسانية سواء . خلقهم من علق يقتضى التعارف والتآلف والتعاون والحياة الناعمة الهنيئة للجميع فى أمن وطمأنينة فلا يصح بعد ذلك أن يرضى الناس أو ينقادوا إلى أولئك الزعماءالذين يفرقون بين الناس و بين مختلف الأجناس لا يتقون الله فى خلقه ولا يراعون للانسانية حرمة ولا كرامة وهم أقرب إلى الوحشية بميلهم للاستبداد والحكم بالغطرسة والظلم والاستعباد لابتذاذ الأموال من ضعفاء الحال « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .

لقد أوحى الله إلى محمد عليه السلام ما أوحى أن يرفع علم الألفة العالمية وأن يضع للناس تحت نور الوحى أساسها « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

خبير » . وأكرم الناس وأرفعهم شأنا من كان على التقوى فى معاملة الناس ينفع ولا يضر ويعطى ولا يمنع وهـذا ما يقتضيه ما بين الناس من علق . ما بينهم من محبة ومودة ومعاونة ومساندة .

بهذا المبدأ الكريم وبهـذا الأسلوب الحكيم دعا القرآن الناس أفراداً وجماعات لحياة جديدة أساسها الأخاء والمحبة والاتحاد والاسناد والتعاون والتعاضد « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » ولهذه الآية مثيلات كثيرات من آيات التبيان والتفصيل لما أجمل فى قوله تعالى « خلق الإنسان من علق » . وهذه الألفة العامة أعلنها الإسلام فى مستهله — وليت دول العالم أجمع تأخذ بهذه المبادىء الحكيمة وتقتدى بهذه الرابطة الإسلامية القويمة . فتكون رابطة عالمية متينة . فإن الانسانية تقتضيها والأخلاق الكريمة تدعو إليها فتكون نعمة للناس كافة ينعمون بها ويتمتعون بآثارها عليهم — هذه الرابطة التى شرفها الله تعالى بتسميتها « حبل الله » ولا غرو فهو أقوى وأمتن ما ترتبط به الإنسانية .

والمستمسكون بحبل الله مستمسكون بحبل غير منفصم — هذه هى الرابطة العامة التى يدعو الإسلام إليها .

مقارنة أثر الحكمة الإسلامية فى هذه الآيات بفلسفات الأمم الغربية :

هذه الآيات وضعت أسس الحكمة الإسلامية وبينت أنها فلسفة تبز أرفع فلسفة فى العالم .

فالفلسفة اليونانية ازاء الحكمة التى أتى بها القرآن الكريم لاتعد إلا كما

يعد المصباح إزاء الشمس المشرقة فى رابعة النهار — فإن الحكمة القرآنية جعلت لتوجيه الناس علميا وعمليا إلى الوجهة الموصلة للكمال — وهى ظاهرة فى هذة الآيات الأولى المجملة المحكمة كما هى مفصلة فى آيات التبيان .

إنه سبحانه فصلها فى عشرات الآيات مبثوثة فى الكتاب الكريم لإقامة العقلية الإنسانية على السنن الطبيعى خالصة من حجب الأهواء والأوهام والظنون نقية من آثار العقائد الموروثة والتقاليد العتيقة حاصلة على جميع ماتقتضيه الحيطة من سماع كل ما يقال واتباع أحسنه بعد التثبت منه وتحرى الدليل عليه متجردة لطلب العلم الصحيح باعتبار أنه أساس كل رقى مادى ومعنوى ومسلك كل وجود شخصى واجتماعى .

هذه الحكمة القرآنية أخذت بها أمة بدوية لا عهد لها بكتاب ولا فلسفة فنالت زعامة العالم فى العلم والسلطان والسياسة والصناعة فى أقل من قرنين من الزمان — أما الفلسفة اليونانية أو غيرها فلم تخلق أمما ولكن الأمم هى التى خلقتها بينما الحكمة القرآنية أوجدت من أناس لم يكن لهم ذكر أمة راقية كان لها أثر عظيم فى العالم لا يشتبه بغيره ولا تزال هذه الحكمة حية وسينتهى الأمر بسيادة الإسلام ومبادئه بعون الله بين جميع الناس فى كل أنحاء العالم .

أوجدت الحكمة القرآنية أمة ذات صبغة عالمية خلاف سائر الجماعات البشرية على أصول عقلية ومبادىء خلقية لا على الحاجات الحيوية ولا الضرورات المادية فالأمة الإسلامية بثقافتها المحكمة أمة مثالية وقد نالت من بسطة السلطان وعزة الملك وقوة المناعة وسمو الثقافة ما لم تنله أمة غيرها فى أقصر وقت . وما أصدق ما وصفها به العلامة الاجتماعى لوثروب استودارد فى مقدمة كتابه « حاضر العالم الاسلامى » بقوله كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ

الأعجب الذى دون فى تاريخ الإنسان — ظهر الإسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان و بلاد منحطة الشأن . فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ممزقا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف وهادماً أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال . ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام . و بانياً عالماً حديثاً مترامى الأركان . هو عالم الإسلام » وقال « كلما زدنا استقصاء باحثين فى سر تقدم الإسلام وتعاليه زادنا العجب العجاب بهرا فارتددنا عنه بأطراف خاسرة — فقد عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيراً بطيئاً ملاقية كل صعب حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والزود عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . بطل النصرانية « قسطنطين » والبوذية «اسوكا» والزدكية «قيا كسرو» . كل منهم ملك جبار أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيدى . انما ليس الأمر كذلك فى الاسلام . الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ . فلسرعان ما شرع يتدفق و ينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود — وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصراً مبيناً عجيبا . إذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة من جبال البرانس حتى جبال حملايا ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا » .

وأضف إلى ما قاله هذا العلامة أن جميع هذه الشعوب التى دخلت فى حكم

الإسلام لم يمكن للمصريين أو الفرس أو الإغريق أو الرومان فيما مضى تغيير كيانهم أو أديانهم أولغاتهم ولم يعترفوا لفاتحى بلادهم إلا بأنهم حكام ولكنهم بعد الفتح الاسلامى قد اندمجوا مع العرب وكونوا معهم أمة واحدة هى الأمة الإسلامية لا فرق بين عربى وغير عربى وصارت هذه الأمة كلها على دين الإسلام لا ترضى عنه بديلا ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وقد ترك أولئك الشعوب لغاتهم الأصلية وتشبثوا باللغة العربية « لغة القرآن » ولم يرض أى شعب منها بعد ذلك أن يعترف بسيادة غير مسلم عليه إلى الآن مهما اتخذه الغاصب من وسائل العنف والقهر . سل عنهم فرنسا وانجلترا والبرتغال وهولاندا وسائر الدول المستعمرة التى تحكمت فى بلاد الإسلام ينبئوك بدوام نفوسهم ثائرة . أو ارجع البصر فى نهضة الشعوب الإسلامية فى أيامنا الحاضرة وثورتها وسرح به فى جميع أنحاء العالم الإسلامى كله رقعة رقعة من مراكش حتى الصين ومن تركستان حتى الكونغو تجد أن الأربعمائة مليون من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتدة الحركة عاملين على إعادة حريتهم ومجدهم وهم بعون الله واصلون « وسيرى الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

المدنيات الغربية والحضارة الإسلامية :

هل للعالم الغربى أن يفيق من غفلته و يضحى بأنانيته وأثرته . إن المدنيات الغربيه أوشكت أن تعلن إفلاسها وقيمتها قد انهارت أو ستنهار يقيناً لأنها نشأت تتعارض والتفاهم الاجتماعى الذى تيقظ العالم له ولأنها انحرفت عن أوضاع الخير فنظرت إلى الطبيعة والكائنات نظرة استغلال واستئثار ونظر أصحابها إلى إخوانهم فى الإنسانية نظرة تمييز بين الأجناس واستمساك بما يسمونه

الوطن فكان ديدنهم لغيرهم القهر والاستعباد والتناكر الذى يجر إلى الحروب ويؤدى إلى الدمار. ويقوض أركان النظم ويحطم صروح الاجتماع ويستنفد قوى الشعوب فى كيد بعضها لبعض، هذه هى الحضارة الغربية وزعامة أصحابها وما أشد الأسف أنهم يزعمون أنهم يعملون للعمران وللصالح العام وكلهم كاذبون فيما يدعون. يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم. ولهذا كانت مواثيق السلام التى تدون من حين إلى حين غير ضامنة لبقاء السلام طويلا ومن جهة أخرى لا يفيد تقرير ضمان لسلام مسلح تحميه الدبابة والطائرة والغواصة والغازات الخانقة أو القنبلة الذرية أو الموانى بقواعدها الحربية، كما أن ارتباط العالم لا يكون ولن يكون بالإسراف فى الاتفاقات والمعاهدات الدولية لأن هذه وسائل لا تخلو من الأنانية والأثرة فهى عمل عنصرى بقهر أمة ليقيم أمة — ولكن الارتباط المتين يكون بالعمل على نهوض التضامن الإنسانى والشعور بالوحدة الاجتماعية والروحية بين البشر كافة وذلك هو الذى يدعو إليه الإسلام «ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة».

إن الحضارة الاسلامية نشأت ونمت فى آفاق واسعة غير محدودة تغذيها الطبيعة بالحرية وتغذيها الهداية الصحيحة بالحكمة فترعرعت فى ظلها العواطف النبيلة وانتعشت فى حماها الفضيلة. بينما الحضارات الغربية قديمها من إغريقيه أو رومانية وحديثها من فرنسية أو إيطاليــة أو غيرهما قد نشأت بين الجدران وأسوار المدن وحيها المطامع والغصب والقهر والحرب لاتدع للعواطف محلا للسمو ولا تترك للائتلاف مجالا للنهوض أو النمو. وقد آن الأوان أن تتنبه هذه الدول خصوصاً بعد ويلات الحرب الأخيرة ومحنة الحرب العالمية الماضية إلى وجوب مراعاة الإنسانية كجامعة واحدة وأن تغير من سياستها فى معاملة الشعوب الأخرى

وتعتبرهم أخواناً لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . ألم تر هـــذه الدول كيف تنكر شعوب العالم بعضهم لبعض وكيف كانت جماعاتهم متأثرة بروح العداوة والعدوان أم كيف كانت تجرى فى الحرب دماءهم أنهارا وتسيل المهج اسرافا وتبذيرا.

إن هذه الدول الكبرى التى تسود العالم اليوم ما زال بعضها يقف بأزاء البعض وقلوبهم ممتلئة بالحقد والحسد والقلق والاضطراب طمعاً فى الاستعمار والسبق للسيادة على الضعفاء وكأنهم لم يتعظوا بما قد كان . وليس من شك أن هذه الدول لا تستطيع أن تعيش ويعيش كل العالم معها فى أمن وطمأنينة أو سعادة إلا إذا عدلت عن الجشع والاستبداد والتحكم —ولقد صار من الواجب عليهم بعد تلك الحرب المهلكة أن يتنبهوا ويغيروا ما بأنفسهم ويبدلوا من سياستهم ألا يرون أنهم إن فعلوا ذلك فإن أمم العالم تتبدل علاقاتها بعضها مع بعض بألفة عامة وبسلام يضرب سرادقه عليها جميعاً . اما تتحول قواها المادية والأدبية إلى ما وجدت له من إقامة صروح الخير العام فى العالم أجمع ولقد صدق عز من قال « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

واجب الأمم وبخاصة أصحاب القوة والنفوذ :

لقد أصبح من واجب الأمم جميعا وبخاصة أصحاب القوة والنفوذ منهم الآن أن يتعاونوا على الخير العام والسلام التام وبأن يتمازج بعضها ببعض لتوليد ثقافة عالمية عامة للناس كافة . لا يشعر فيها الفرد أينما كان مقره بنفور أو بؤس أو فاقة . بإنشاء حضارة إنسانية موحدة الوجهات والغايات لا تعرف التفرقة لسبب إختلاف الوطن أو الدين أو اللغة أو الجنس أو اللون بل يوجد بين الناس التعارف والتآلف والشعور الصحيح بأنهم جميعاً من نفس واحدة وبأن أمجدهم

وأكرمهم أحسنهم عملا وأكثرهم للناس نفعا . بغير تمييز بينهم ولا إيثار .
يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .
ويقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

يجب أن تكون هذه الصيحة التى تبعث على وحدة الإنسانية صادرة
من أعلى الدول مرتبة وأقواها شوكة حتى يكون لها أثر سريع فعال . ان كل
الخير للناس أن يلتئموا جميعاً على اختلاف أقدارهم فى سوق البشرية عارضين
منتجات نشاطهم المختلفة من علمية وفنية وعقلية وروحية واجتماعية وسياسية
وعملية . فإن بعض الإنتاج متمم أو ضرورى للبعض الآخر والناس فى حاجة لها
كاملة متقنة . وأن كل الخير للناس أن تتجه ميولهم ومشاعرهم جميعا إلى المثل
العليا فلا يليق بأمة أن تعمل على إحراز القوة و بسط السلطان على أخرى أو
تدعم بنيها بوسائل الهجوم والدفاع المادى فى سبيل حيازة الثروات وجمع الأموال
وفرض النفوذ السياسى على الغير كما هى حال الدول الكبرى بل وأغلب دول
أوروبا الصغرى إلى اليوم . يجب أن تكون نزعة الطموح والرقى للبشرية كافة
هو ما تبتغيه كل أمه وكل فرد بإخلاص . فما الخلاص من هذا الشر الوبيل
إلا بالإخلاص التام النبيل . فتكون عاطفة كل فرد وما يرمى اليه كل فرد
من جليل أعماله هو للصالح العام المشترك ولتنضج ثمرة قوله تعالى « خلق
الإنسان من علق » .

القادة والزعماء :

إن القادة أو الحكام أو الزعماء الذين يعملون على اعلاء أمتهم وحدها

على أكتاف الغير واثرائها على حساب الغـير وتقويتها باضعاف الغير إنما هم مجرمون اجتماعيون ولصوص متوحشون ومن ذوى النفوس الخسيسة . هم خونة الإنسانية ومن يمجدهم من أبناء بلادهم و يعدهم من العظماء لفوائدهم العاجلة الظالمة . هم شركاء معهم فى خسة النفس والإجرام والخيانة . ولقد أدرك العالم أخيراً هذه الحقيقة فبدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة فى معاقبة بعض هؤلاء باعتبارهم مجرمين فى الحرب . ولـكن للأسف أن عاد هذا الشعور لحالة الضعف عند الساسة والزعماء وعاد ما للتنافس فى الأثرة وحب سلطان دولهم على الغير وقاموا يتصرفون فى الأمم الصغيرة أو الضعيفة تصرفهم فى السلع تباع وتشرى وكأنما هم فى أسواق النخاسة. فيا للانسانية المعذبة و يا للعار المدنيات الغربية . ! !

أين هذه المدنيات من تعاليم الاسلام وأحكامه ومبادئه ونظامه الوارد بها قرءانه وسنة رسوله ولقد كانت آية « خلق الانسان من علق » حجر الزاوية الأساسى فى هذا البناء المتين .

جامعة أمم عربية كمقدمة للامة الاسلامية الموحدة :

قد يدهش الغربيون أن يعلموا أن هداية الإسلام وتعاليم القرآن قد وضعت أساساً لنظام جامعة موحدة للأمم وذلك عند بداية تـكوين الأمة الإسلامية . فإن محمداً عليه السلام وهو ينشر الدعوة للاسلام كان مشركوا قريش يعاندونه و يطاردونه بينما الصفوة الفاضلة من شبانهم يسلمون و يناصرونه فذاع صيته فى الجزيرة وشاع أمر الدين الجديد ومعاندة قريش له وكان ذلك داعيا لتحفز القبائل أن يبعثوا إليه وفوداً لاستطلاع خبره ومعرفـة حقيقة أمره وكان عليه السلام يبث فى الوفود دعوته للاسلام و يقرأ عليهم ما تيسر من القرآن حتى إذا آنس منهم رشداً وهدى طلب أن تعين كل قبيلة نقيباً لهـا من ذوى الرأى والنفوذ

فيها يكون مسؤولا عن سلوكها بأن يتركوا عادات الجاهليــة من نهب وسلب وحرب وتعد ووأد البنات وغير ذلك من الجرائم والشرور وأن يتــكون من هؤلاء النقباء مجلس يقضى فيما يقع من خلاف بين طائفة وأخرى وأنْ تبعث كل قبيلة بعريفها وهو رئيس جندها لتتكون منهم هيئة للقيام بتنفيذ ما يقضى به النقباء . وتعين لهؤلاء وهؤلاء أمنــاء أى كتبة بلغ عددهم اثنين وأربعين وتدل كثرتهم على عظم المهمة التى اضطلعوا بها جميعاً . ونزلت الآية الـكريمة «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » فكانت هذه الأية بمثابة دستور تعمل به تلك الهيئات .

وعلى هذا كان مجلس النقباء يقوم بالصلح أولا بين الطائفتين فإن بغت إحداها ولم تجنح للسلم يقرر قتالها وبهذا أوجــد محمد عليه السلام تبعية متبادلة عملياً بين قبائل جزيرة العرب ، وهذه بلا شك نظرية دستورية تصلح أساساً لجامعة أمم عالمية . وقد كان عليه السلام بعيد النظر إذ أوجــد بجانب مجلس الحـكم هيئة للتنفيذ فكان رهيب الجانب بخلاف ساسة العصر الحاضر الذين قصر نظرهم عن مراعاة ذلك حين أنشأوا عصبة الأمم على أثر حرب سنة ١٩١٤ وحين أوجدوا جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن على أثر الحرب العالمية الأخيرة ولذلك فشلت الأولى ويخشى على الأخرى بالفشل كذلك ، ثم تأمل دستور التنفيذ الذى رسمه القرآن فى حالة الخلاف من السعى فى الصلح أولا و بالعدل انظر إلى تعاليم القرآن الـكريم وهدى الإسلام القويم وكلها تدور حول الاهتمام بنظرية ما بين الناس من علق وأحكام نظامه وتوطيد أركانه .

أحكام الاجتماع فى الاسلام

وأضف إلى ما ذكرنا أن ما نسميه الأصول الخلقية والمبادىء الأدبية أو حسن المعاملة والمراعاة والمجاملة ما هى إلا قواعد انتظم هذا «العلق». بل كذلك القوانين وأحكام الدين ما شرعت إلا لأحكام علاقة الناس بعضهم ببعض. والإسلام قد وفاها جميعاً حقها من البيان والإيضاح والأحكام، فالرابطة الإسلامية هى أرق الروابط الاجتماعيـة البشرية لأنها تأسست على الأصول الخلقية الكريمة والمبادىء الأدبيـة القويمة فأوجدت بين المسلمين الأخوة الروحية والتآلف المتين « عروة وثقى لا انفصام لها » تجعل النفس راضية مرضية وحياة الجماعة والفرد حياة سعيدة آمنة مطمئنة. وهذه نعمة الإسلام ما أجلها نعمة. نذكرها لله بالحمد والمنة. «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام» وقد قال عليه السلام « الإسلام نور يقذفه الله فى القلب فيشرح به الصدر » وها هو القرآن ينبوع لا ينضب تجرى منه أنهار الهداية والحكمة بلا انقطاع.

لقد وضع الإسلام الأحكام الكفيلة بالمحافظة على هـــذه الألفة العامة والصالح الاجتماعى. أحكاما تضمن حفظ النفس والنسل والعقل والعرض والمال والآداب فشرع القصاص وقرر أحكام الزوجية والإرث وفرض الرضاعة والحضانة وعاقب على تناول المسكرات وأمر بتأديب من يتناول غيره بغمز أو لمز أو هجاء أو قذف. وعلى عقاب السارق وقاطع الطريق وما إلى ذلك من الجرائم والمنكرات. فأقام أحكامه وآدابه على القواعد التى ينتظم بها العمران وتخف بها متاعب الحياة وتكفل للناس السعادة « وتعاونوا على البر والتقوى

ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، بل لقد فرض لحفظ النظام الاجتماعى وترقية شأنه أن تتولى الأمة الدعوة إلى الحق والإصلاح والتحذير من الباطل والفساد . فقال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وما أكثر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى هذه الأغراض فمن ذلك تقريره وجوب الصلح كما ذكرنا ومنها ما ينظم العلاقة بين الفقراء والأغنياء والأهل والأقرباء، ففرض الزكاة وأمر بالصدقة والهبة والوصية. ومنها ما قرره بشأن إغاثة الجائع أو العطشان وعقاب من لم يسعفه وهكذا . نسأل الله أن يهدى الناس جميعاً سواء السبيل .

الدعوة ليقظة المسلمين

ويجمل بنا هنا أن ندعو إخواننا المسلمين أن تيقظوا لوجودكم وقدروا قيمة روحية حياتكم فان الفرصة الآن سانحة لكم لتجديد نشاطكم وخلاص أنفسكم وبلادكم من ذل سلطان تحكم الدول الغربية فيكم . وإزاحة نير العبودية عن أكتافكم ونفض غبار مسكنتكم وخضوعكم ، فلا تستمروا متروكين فى غفلة رقدتكم ، غارقين فى جهالتكم ، ارجعوا إلى وحدتنا ورابطتنا الاسلامية . وجددوا عهد الإنسانية الصحيحة . عهد ديننا وأمتنا . إن أسلافنا فى الماضى القريب قد استغرقوا فى الجهل والضعف بتركهم العمل بالإسلام وانحرافهم عن هدايته فجردوه من هيبته . وتفرقوا شيعاً فأطمعوا فيهم الدول الغربية حتى صاروا لهم تبعاً فاستعبدوهم وأذلوهم . وما أن قمنا فى هذا العصر بنهضة مباركة نعمل للحرية والاستقلال والتقدم حتى داهمنا اليهود بخطر جديد .. ابتدأوه باحتلال فلسطين بمساعدة بريطانيا لجعلها وطناً قومياً لهم . أى دولة يهودية

تتحكم فى البلاد العربية مستهترين بأصحابها ومستهزئين بالمسلمين جميعاً ، أولئك اليهود الذين كانوا طول الأزمان مستضعفين فى الأرض أصبحوا اليوم مستهترين بنا ومستهزئين ويريدون أن يخرجوا أهل فلسطين المسلمين العرب من ديارهم ويحتلوها أولا تحت اسم الوطن القومى . ثم لا يلبثون أن يصبحوا السادة فى جميع الشرق الأوسط وأصحاب السلطان فيه ويقيمون دولة يهودية فى بلادنا لا أراد الله تتحكم فينا وتستعبدنا . فاذا لم نتلاف الخطر المحدق بنا قبل استفحاله ونطفىء أتون النار قبل زيادة اشتعاله فلا سبيل للنجاة أو للخلاص . فاعملوا على مكانتكم ووحدوا قوتكم ودافعوا عن كيانكم بعزم وحزم ، و بتعبير الشيخ الكواكبى رحمه الله « هذه كلمات حق وصيحة فى واد إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالأوتاد » وقانا الله شر ذلك اليوم وكلأ المسلمين برعايته وأمدهم بقوته .

فى خطاب للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله يقول « أقول ولا أخشى فى الحق نكيراً : لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان لا يراعى فى ذلك عذرا ولا تعلة . وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله .

« مع هذا كله نقول : إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة . وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول . ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين وأحيوا روح القرآن وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخالف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نوراً يبهر الأبصار وأعمالا تحار فيها الأفكار . وأن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب

الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين ويوحد بها بين جميع الموحدين ونرجو أن يكون هذا قريباً فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم صحت لهم الأوبة ونصحت منهم التوبة وعفا الله عنهم وعما سلف منهم والله ذو فضل على المؤمنين . فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هـذا الخير . وهو الخير كله — جمع كلمة المسلمين — والفضل كل الفضل لمن يبـدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتـد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) » .

وقال المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا : « رحم الله محمداً عبده كاتب هذا الخطاب ورحم الله السيد الأفغانى الذى فتح له ولنـا هذا الباب فهكذا فليكن التذكير بالقرآن (وما يذكر إلا أولو الألباب) » .

إن هناك بريقاً ساطعاً من الأمل باستعادة الاسلام غابر مجده ورجوع المسلمين إلى قوتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية الأولى وحضارتهم السامية . وذلك برجوعهم إلى التمسك بحقيقة دينهم وعلى حد قول ليوبلد ڤايس « ان هذا الدين الذى استطاع أن يجمع العرب منذ أربعة عشر قرناً ويجعل منهم قوة عظيمة فى السياسة والاجتماع فى قليل من السنين يستطيع أن يقدم للمسلمين اليوم ما قدم لهم بالأمس : دسـتوراً للحياة لا تجد مثله فى النظم الاجتماعية والدينية والخلقية . من تلك النظم التى تعرضت منذ فجر التاريخ حتى اليوم لتهذيب البشر . إن الإسـلام ليس ديناً لأمة خاصة ولا ديناً لبلد بعينه ولا ديناً لا يناسب إلا زمنا واحداً . إنه دين يتفق مع كل مكان وزمان ويصلح لكل قوم ولكل حال من أحوال المدنية .

« وإن الدين الذى خلق عظمة العرب المـاضية وعظمة غير العرب من

الذين اعتنقوه فى مراحل التاريخ لقادر على أن يعيد إلى المسلمين عظمتهم التى فقدوها من جراء تهاونهم الطويل . ثم إن الإسلام أقدر الأديان كلها على خلق القومية الصحيحة فى الأمم » . وقد اعتنق هذا العالم الإسلام لما بهره نور الحق .

مثل من أحكام الشريعة كنموذج لغيره

ونرى استيفاء للكلام فى هذا المقام أن نأتى بمثل من أحكام الشريعة كنموذج لغيره . وقد اخترنا مسألة الكفاءة فى الزواج فان الزواج من أهم الروابط التى تصدق عليها آية « خلق الإنسان من علق » فهى تدخل فى ثناياها وتتفرع منها . قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (سورة الروم ٣٠ـ٢٢)

وهذا التعبير الحكيم أحسن تعريف وأجمله لرابطة الزوجية الصحيحة سواء من حيث سمو الفكرة أو من حيث جمال الإسلوب البيانى بما يعجز عنهما أبلغ المتشرعين وفى طيات الآية إيضاح لما يجب أن تكون عليه الأسرة ولذلك أحاط نشأتها بحوائط كالئة لتحقيق أسباب الألفة وتوفير دواعى السعادة . ولله الحمد أن صار الزواج من قديم الزمان يؤدى وظيفة اجتماعية فلا يقتصر أمره — على حد قول الأستاذ عباس العقاد — على مجرد التوفيق بين فردين إجابة لولع لذة عاجلة و إنما إجابة لما يجب لتكوين الأسرة ونظامها ولما يجب للمجتمع والآداب الإنسانية حتى لم تعد أية امرأة تصلح لكل رجل ولا أى رجل لكل امرأة و بعبارة أخرى ليست كل امرأة ولو أكملت الطبيعة لها جميع عناصر الانوثة ووهبتها الجمال وغيره وجعلتها أنثى من الطراز الأول تكون زوجة مثلى لأى

رجل « ولأمة مؤمنـــة خير من مشركة ولو أعجبتكم » وكذلك لا يصلح كل رجل أن يكون زوجا أمثل لأية امرأة لأن الانسانية تتطلب توثيق علق ما بين الزوجين ودوامه وثيقا وذلك بمراعاة دواعيه والعنـاية بشؤونه فجاءت الشريعة الغراء بأحكام الـكفاءة للالتفات لأمر التساوى أو التقارب بين عائلتى الزوجين فى شرف المحتد ومنزلة العلم وحالة الثروة وما إلى ذلك » .

تلك الأحكام التى تكفل حسن المعاشرة والمودة والرحمة وطيب الحياة بين الزوجين والأولاد والأهل والأصحاب بدوام السعادة ترفرف بأجنحتها على بيت الأسرة فيؤدى هذا الارتباط ما شرع له وما قصد به — وأكد هذا تعالى فوق ذلك بأحسن وصف للأزواج بقوله « هن لباس لـكم وأنتم لباس لهن » .

روابط أخرى فى طبيعة الانسان

ولا يفوتنا أن نذكر أن من ضمن الروابط والعلاقات التى نجدها فى طبيعة الإنسان مما يصح أن يدخل تحت حكم « خلق الانسان من علق » ما هو فى داخلية نفس الانسان فان هناك علقا بين جســده وعقله على حد قول بينيه (Binet) العلامة الفرنسى فى علم النفس « لقد دل البحث على أن هناك اتصالا وثيقا بين النمو الجسدى والنمو العقلى فى الانسان أو بالحرى بين سلامة الجسم ونزوة العقل ووثبة الفكر » وقد طلب من أجل ذلك أن يعنى بألعاب الأطفال لحفظ التوازن فى نموها ولا غرو فالعقل السليم فى الجسم السليم .

وكذلك يوجد ارتباط بين جسم الإنسان وعقله و بين روحه غير أننا لا ندرى ما إذا كان العلم عند الانسان بلغ الحد الذى يمكنه من معرفة شىء يقينى عن الروح أو عن علقها بغيرها . وقد قال تعالى « يسألونك عن الروح قل الروح من

أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » — حقيقة أن علماء كثيرين قد تقدموا فى أبحاثهم عنها ولكن ما وصلوا اليه ما زال لا يعطى نتائج حاسمة فكل ما يمكننا أن ننوه به الآن هو أن هناك علقا بين روح الانسان و بين جسمه وعقله مما يدخل تحت حكم آية « خلق الانسان من علق » ولكن ليس فى استطاعتنا تعيين هذا العلق أو تحديده .

علاقة الانسان بالخالق جل شأنه :

أما علاقة الانسان بخالقه تعالى فمظهرها العقيدة به والعبادة له . والاسلام من بدء آياته الأولى قد وضع الانسان مباشرة أمام الله وحده فأمره « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فلم تكن بينه و بين الله واسطة ولا زلفى . فلا توجد قربى للانسانية من الله أو صلة بين الانسان وربه أمتن وأوثق من هذه القربى وهذه الصلة . وهى رفعة للانسانية وتقدير لها فوق كل رفعة ، أن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهة العقلية وأعظمها سلطانا على النفس البشرية ويزيدها الشعور الوجدانى الذى لا سبيل إلى عدم الاعتداد به . فان كل إنسان يسأل نفسه بالفطرة عن نفسه وعن خالقه . ومن عرف نفسه فقد عرف ربه . إذ أن أقرب جواب عقلى ووجدانى على سؤاله هذا ، أن الذى خلقه هو خالق قادر خلق الكون وجعله ضمن خلقه ، وهو واحد لا مثيل له ولا شريك . هذا هو الايمان الذى يفيض نوره على الانسان .

ولو نظرنا إلى حكمة العقيدة هذه لوجدنا أن الله تعالى كتبها على الناس من أجل أفادتها لنظام الاجتماع وحسن علق الناس بعضهم ببعض. ذلك لأن اتحاد العقيدة يربط القلوب و يؤلف النفوس و يوحد الاحساس والاتجاه لشعور الناس

جميعا بسلطان حاكم واحد و بتمجيدهم لمعبود واحد فتتوحد وجهاتهم وتتقارب ميولهم. فسلامة العقيدة هى لمصلحة الانسان نفسه «وأن الله اغنى عن العالمين».

حكمة العبادات

وكذلك ما شرع الله تعالى من عبادة الناس له فحكمتها إفادتهم أنفسهم وتقوية الرابطة بينهم.

والعبادات الدينية المحضة أربعة أنواع . الصلاة والزكاة والصوم والحج . وقد استوفتها النصوص و بينتها السنة العملية فلا وجه للزيادة فيها أو النقص منها ولا لإيقاع شيء منها على غير ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . قال حذيفة رضى الله عنه « كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها » .

ومن ألطف ما يروى عن الإمام مالك رضى الله عنه أن رجلا استشاره فى الإحرام من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من عند قبره (بالمدينة) فنهاه عن ذلك وأمره بالإحرام من الميقات فلما ألح الرجل قال له « لا تفعل فانى أخشى عليك الفتنة » فقال الرجل « وأى فتنة فى هذا ؟ إنما هى أميال أزيدها » قال « وأى فتنة أعظم من أن ترى إنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنى سمعت الله يقول (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) — ومن أجلّ كلامه رضى الله عنه «من أحدث فى هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الدين لأن الله يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً » .

الصلاة :

الصلاة صلة بين العبد وربه هى آية الإيمان القلبية الخفية . تجعل العابد مستحضراً لجلال الله ومهتدياً بهداه ، يتقيه حق تقاته رجاء ثوابه ، ولا يحيد عن صراطه ، خشية عقابه « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون» . فهى تبعد صاحبها عن الاضرار بنفسه أو بغيره إذا هو أقامها كما ينبغى بتضرع إلى الله بالنفس والقلب ، فمن صلى هكذا فقد نجا من فكرة طبيعة الحيوانية فيه وارتقى المدارج العقلية وعمل بما توجبه الهداية الإلهية ، وهذا فوق ما تزيده صلاة الجماعة من تمكين التآلف وما تحدثه من التعارف ، وأما من أقامها بظاهر حركاتها المختلفة ولم ينته بها عن ارتكاب الفحشاء والمنكر فلا يكون نصيبه من صلاته إلا الركوع والسجود والقيام والقعود وسيتولاه مولاه بعقابه عما جنته يداه . إن إقامة الصلاة ليست عبارة عن آدائها مطلقاً وإنما هى عبارة عن القيام بحقوقها الروحية فى صورتها العملية ، وذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه وإشعار القلب عظمته وكبرياءه ، إنه بهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش والمنكرات وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذاً فى الحق وأشد بعداً عن الأهواء فللصلاة قوة معنوية فى صلة المربوب بربه أو المعبود بعبده ليس ثمت قوة تضارعها .

الزكاة :

وحكمة الزكاة ما أجلها فهى دواء شاف لأخطر أمراض المجتمع الإنسانى إذ هى تحد من غيظ الفقير وكرهه للغنى ، بل هى تحبب الفقير فى الغنى وتعود

الغنى على البر والإحسان بالفقير ، هى عبادة مؤلفة بين القلوب ومسعدة للحياة. بها إسعاف المحتاج وسد رمق العاجز ، وفيها شفاء للنفوس من داء الحسد والكيد . وقد جرت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة لأن الصلاة أصلا لإصلاح شؤون الاجتماع ولكن فى كل منهما ما فى معنى العبادة الأخرى فإن المال على ما يقال فى الأمثال شقيق الروح فمن جاد به لغيره ابتغاء مرضاة ربه كان بذله مزيداً فى إيمانه . فالزكاة إصلاح روحى أيضاً كالصلاة وهى الدليل الحسى الظاهر على إخلاص القلب والإيمان بالله .

الصوم :

الصوم هو داعية التعاطف ورابطة التواصل بين الأغنياء والفقراء ، فشعور الأغنياء بالجوع مشعر بحال الفقراء ، داع إلى الإحسان إليهم والعطف عليهم فضلا عما فيه من تهذيب للنفس وكسر من شرة كبريائها و بطرها ، ثم هو تعويد على التمسك بالصبر والصدق والأمانة ولهذه جميعاً أثرها فى علاقات الأفراد والجماعات ، وما أحسن ما قاله المرحوم أحمد شوقى بك فى حكمة الصيام « الصوم حرمان مشروع وتأديب بالجوع وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكم وحكمة ، وهنا الحكم ظاهره العذاب و باطنه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ، و يعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، وما هو ألم الجوع إذا لذع » .

تلك هى بعض المعانى الاجتماعية فى الصيام وفيما سن فيه فضلا عن فوائده الصحية وحكمته التهذيبية وكم فيه من محاسن أخرى ، ويكفى أن يصطحب

فرض الصوم بفكرة سامية بأن جعله تعالى فى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . فهذا أمر يغير به المسلمون نظام عيشتهم اليومية فى مدة شهر معين بنظام آخر و باتباع أحكام بها يشتركون جميعاً فى الاحساسات والمشاعر واضعين نصب أعينهم طاعة الله وعلقهم ببعض وتحابهم ذاكرين أنه الشهر الذى نزلت فيه أولى آيات هدايتهم وما أجلها وأجملها ذكرى عند المتقين وأولى الألباب .

ليلة القدر خير من ألف شهر :

وما أجل هذه الليلة التى قدر الله فيها نزول القرآن الكريم « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر » حقاً إن الإنسانية قد استفادت من هذه الآيات وحدها بما لم تستفده من أعمال أعظم المصلحين وأفكار أكبر الفلاسفة و إرشادات أجل العلماء ، لو قدر الخير مما عملوه أو يعملونه فى ألف شهر أى أكثر من ثمانين عاماً ، ومن من الناس يداوم على نفع الناس أكثر من عدد هذه السنين من عمره مهما طال؟ — فهى ليلة مباركة قدرها خير من ألف شهر وهكذا كل ليلة قدر الله فيها للقرآن تنزيلا ، و إذا نحن قدرنا أن نزول القرآن نجوماً فى ثلاث وعشرين سنة وأنه شغل من ليالى النبى عليه السلام ما يعادل ثلث عشرين سنة تقريباً لفتور الوحى نحو ثلاث سنين فان فى هذه المدة ٢٤٣٣ ليلة قدر كل منها خير من ألف شهر فهى تعادل أكثر من مائتى ألف سنة خيالها من ليال جليلة مباركة .

الحج :

أما الحج فما أعظم شأنه وما أجل نتائجه ، فهو مؤتمر جامع الناس كل عام ليتعارفوا و يتقاربوا و يتبادلوا النظر فى مصالحهم المشتركة ، ولو اهتدى المسلمون إلى حسن القيام بواجبهم فيه وعملوا بالمقصود منه لبقى الإسلام رفيع الشأن مهيب الجانب وما استذل شعب من شعوبه لسلطان أجنبى أو لعدو لدود ، ولكان الحج أكبر مظهر من مظاهر الرابطة الإسلامية . و بإيجاز القول أن من مقاصد العبادات كلها توطيد دعائم التضامن الاجتماعى وتحقيق الغرض من أن الله سبحانه « خلق الإنسان من علق » فيه التوثيق « بحبل من الله وحبل من الناس » .

العلق بين الانسان وسائر الكائنات

ونختصر القول عن العلاقة التى بين الإنسان وسائر الكائنات وهى تشمل الشؤون الاقتصادية وهذه مباحثها متعددة وواسعة ونكتفى بالقول بأن على الإنسان أن يوثق هذه العلاقة بتوطيد نفسه على الاندماج فى العالم يبادله حباً بحب وعطفاً بعطف فهو عندما يسخر الطبيعة لايسخرها لأنه قهرها وأذلها ولكن لأنه فهم منها أسرارها فأحبها وشعر فى نفسه بأنه منها وأن لا حواجز تحول بينه و بينها للانتفاع بها وأنها من نعم الله عليه .

إن الإنسان مهما يجاهد ويبذل فى الحياة فلن يخلق شيئاً من عناصر وجوده فى ذاته « أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » وهو كذلك لن يخلق شيئاً من عناصر حاجياته « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون » وقال فى ماء الشرب

« أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون — لو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون » وقال فى النار « أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .

فالانسان لا يمكنه أن يعيش بغير مدد موصول مما حوله من العالم فهو مفتقر إلى ما حوله من عناصر الحياة أكثر من افتقاره إلى معاونة الناس له ومساعدتهم إياه . مفتقر أن يحاط بهالة من الطبيعة أو هالات تتصل نقطها به بانصاف الاقطار فيكون هو مركزها قريبة كانت منه أم بعيدة عنه ، يستمد منها حاجاته و يوفى بها رغباته أما بغير هذا الاتصال وعلقه ، بها لا يطيب له عيش ولا تبقى الحياة .

وأنه ليطول بنا الكلام لو أردنا بحث العلاقات الاقتصادية بين الافراد أو بين الشعوب و بعضها ونكتفى بهذا التنويه بها و بعظم شأنها فهى أم العلاقات وأقواها التى عليها مدار الحياة و بعد مداها .

آيات العلم

أما آيات العلم فقد جاءت كذلك لتقويم الشخصية الانسانية ولكنا نرى أنها لا تحتاج إلى إيضاح أو كلام كثير لأن فضل العلم صار من زمان النهضة الاسلامية معروفا للخاص والعام فهو السبيل وهو الدليل ، لا حسنة إلا هو مفتاحها ولا مزية إلا ومنه يتقد مصباحها ، ولا قدرة دون أن يكون رائدها فيما تطلب ، وقائدها حيث تؤم وتذهب ،ويكون المصرف لعنانها ، والمقلب لها فى ميدانها فهى مفتقرة اليه ، ولا تعتمد إلا عليه ، ومن كرم الله تعالى أن يسره للطالبين والراغبين وحفظ محصول زرع السابقين للاحقين وجعله محصولا

لا ينفد ولا يقل بالاستهلاك بل يزداد ، ولا يضعف ولا يبلى بالاستعمال بل يقوى و يشتد . ولقد ذكر تعالى القلم إذ لولاه لما وصل علم الأولين للاخرين وفى ذلك لفت لما فيه النفع الجم ، وفى الآية الاخيرة إشارة إلى أن العلم لا يقف عند حد . بل هو دائما فى تقدم مستمر لأن المتأخر من العلماء يبنى على ما أسس المتقدمون و يشيد على ما وضع الأولون فيزيد فى بنائهم ما لم يكونوا يعلمون فيخطو بالعلم خطوات جديدة وهكذا غيره ، والله بهذا «علم الإنسان ما لم يعلم»

ثم إن ابتداء آيات العلم هذه أيضا بفعل « اقرأ » يصح أن تفيد به المعنيين الأصلى وهو الجمع والاصطلاحى وهو القراءة المعروفة فالقارىء يجمع العلوم فى قلبه بالدرس والاستذكار أو يطالعها و يمارسها بالتعلم ، ولما كان تعالى لم يجعل للعلم حدا ينتهى اليه فكلما وصل الانسان إلى علم شىء علمه الله بعده ما لم يعلم فسلسلة حلقات العلم ممتد طولها ولا يعرف آخر لها « فاقرأ وربك الأكرم » .

أما وجه ارتباط هذه الآيات بما قبلها وقد سبق لنا الأشارة اليه فأن أول ما يتجه الفكر أذا ما ذكر العلم بعد الكلام على القراءة فى الكون واستنباط المعارف منه و بعد الكلام على توحيد الشعوب وتقارب الأمم يتجه الإنسان إلى أن المراد استيفاء التعلم والبحث فى العلوم لتحقيق كل المسائل بالأدلة العقلية والنقلية أو قل بالتشريح الفكرى الكامل كما يتجه الفكر أيضا إلى ما صنع العلم لوصل ما بين الأمم أرضا و بحرا وجوا فأن العلم هو الذى أوجد القاطرة والباخرة والطائرة فيتواصلون و يتبادلون أشياءهم من مزروعات ومصنوعات . كما صنع العلم على اتصال النفوس والتقاء القلوب والأفكار فكانت أداة الطباعة وكان التلغراف فالتلفون بأنواعهما وقريبا ينتشر التلفزيون كما انتشرت الكهرباء والسينما والراديو وغيرها ، والكلام فى هذا يطول و بالأيجاز فأن العلوم والفنون

صنعا ويصنعان الشيء الكثير فى تآلف الناس جميعا أفرادا وشعوبا ولله الحكمة البالغة فى وضع هذه الآيات بأسلوبها هذا فى بداية الهداية الأسلامية .

اقرأ — اقرأ

نعم : اقرأ باسم ربك — اقرأ وربك الأكرم .

اقرأ : هى أول كلمة نزلت فى القرآن وأول حجر فكرى كريم وضع فى أساس بناء الإسلام ، فعلى كلمة اقرأ تأسست الحضارة الإسلامية السامية .

اقرأ : كلمة استنارت بها عقول العرب فخرجوا من ظلمة الجهالة إلى أنوار العلم والحضارة ثم اتبعوا غيرهم بهم وأضاؤا لهم الكون حتى كانوا سبب نهضة أوروبا العلمية والاجتماعية .

اقرأ : التى تكررت فى بداية أولى آيات القرآن كانت أعظم دعوة أو نفير للجهاد الفكرى .

اقرأ : هى فكرة الهية هبطت من أرفع مقام إلى رأس رجل أمى فجعلت منه أعظم نبى وأعظم إنسان وكونت أمة صار لها أعظم شأن .

اقرأ : هى آداة استكشاف الطبيعة ووسيلة التمتع بجمالها .

اقرأ : هى آداة الانتفاع بما تدون من العلوم وخاصة وهى تتضمن فعلين. أحدهما هو التلاوة قولا والآخر بالتأمل فعلا فهى فعل قول وعمل .

اقرأ : هى الشطر الأكبر من شطرى وسائل الارتقاء بالعلم ، شطره الأول. ما يكتبه العالم وشطره الثانى ما يعمله الوف الألوف من القراء

بلاغة الآيات

وأما بلاغة هذه الآيات فظاهرة باهرة ، الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والسبك الجيد . تأمل فى الخواتم والفواتح أو البوادى والمقاطع وطريقة التنقل والتحول تدهش لهذه المقدرة فى التعبير وهذا الأحكام والتدبير . تركيب وأسلوب يأخذان بمجامع القلوب . كلام له جلال ورونق . هبط إلى النفس الإنسانية من أعلى أفق ومهما نقل فيه ، فانا لانوفيه .

فيه حسن ملاءمة معنى كل كلمة لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها فالمزية الظاهرة ترجع إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض كعقد من الجواهر الغالى متناسب اللالى . والحسن يعرض لها من حيث لاقت الكلمة الأولى بالثانية والثانية بالثالثة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها . فالفضل على حد قول الإمام عبد القاهر الجرجانى تناتج ما بينها وحصل من مجموعها .

إنك لو تقصيت التركيب وتمعنت فى الأسلوب لتجلى لك الإعجاز وبهرك الذى ترى . ما أجمل ما تجد من المقابلة بين إقرأ الأولى فى قوله « إقرأ باسم ربك . وبين إقرأ الثانية فى قوله « إقرأ وربك الأكرم » بمراعاة ما اقتضاه المقام فى كل منهما . هنا بالاستعانة باسمه الأعلى وهنا بالتمتع بكرمه الأوفى ثم حصول الاستغناء بعدم ذكر معمول لكل منهما لما هو مدلول عليهما من سياق العبارة والتلميح والإشارة .

فما أحسن هذا الإيجاز البارع بترك مفعولى فعلين مع الاحتفاظ بجوهر المعنى وإصابة الغرض . كما استغنى أيضا عن المفعولين لفعلى خلق الأولى وعلم الأولى — وهذا الاستغناء مع وضوح المعنى . فيه سر البلاغة ومنتهى البراعة فقد صار الكلام به موجزاً معجزاً .

فأنت ترى من هذه الدقائق ما يملؤك روعةً و يغمرك عند تصورها جلالا وهيبة وهذا فوق ما بين المعانى والألفاظ جميعاً من الاتساق العجيب وورودها بالنغم الجذاب .

هى مزايا تظهر فى نظمها وخصائص تصادف فى سياق لفظها ، بدائع رائقة من مباديها ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، لا تجد لفظاً غيره بأصلح منه فى جملته ولا أكثر تبياناً فى عبارته كما بيناه من قبل فى معانى كلمة إقرأ وهذا البيان يصح القياس عليه فى سائر كلمات الآيات ، تجد نظاماً والتئاماً ، و إتقاناً وأحكاماً ، والألفاظ فى ذاتها كالموسيقى تلذ للأذن وتؤثر فى الشعور والوجدان ألفاظ جيدة التوصيل للمعانى تسير بها كتيار الكهرباء فى السلك حتى ترد إلى الذهن فالعقل ، فتضىء فيه بأنوار مشرقة باهرة ، أو هى ألفاظ كالمرآة للمعانى تنقلها بألوانها الزاهية الزاهرة .

ثم أعد نظرك إلى التراكيب تجده قد حسن انسجامه ، وتعادلت أقسامه ، وتوازنت فقراته ورقت نبراته ، الفاظه متوافقة بين السكنات والحركات ومؤلفة بين الحروف والكلمات ، ووضع الفواصل فيه دقيق محكم فما أجمل قوله : « اقرأ وربك الأكرم — الذى علم بالقلم — علم الإنسان ما لم يعلم » كل كلمة منهـــا ما أبدع صورتها وصوتها ، وما أبرع فكرتها وأبهر نورها . دقة فى التعبير ، ورقة فى التصوير ، وكأنما الصورة من الفكر كالجسم من الروح ، متلازمين فى مخلوق حى ، كملك كريم ، ذى قدر عظيم . الله حافظه مدى الزمان معروفا ومرسوما بالقرآن ، فهى آيات فى غاية الايجاز بأفصح لفظ وأبلغ معنى ، جاء باسلوب جديد عجز الناس عن محاكاته ، أسلوب لا يشبه أسلوب العرب فى النظم أو النثر مع أنه بلغة العرب . فيه تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد

الذوق بإنتهاء الـكلام عندها ثم يعاد الـكلام فى الآية الأخرى والتى بعدها كرجع الحمام من غير عطف ومن غير التزام الحرف الذى يكون سجعا أو قافية إذ ليس المقصود منها أسجاعا أو قوافى .

وقع كل لفظ فى الآية يجعله كأنما أختير ليفسح المجال لجملة معان تفتق الذهن وتوسع دائرة النظر والتفكير والتعمق فى البحث . ثم لاحظ بعض الفواصل التى ترد أول الآية على آخر سابقتها و توثق ما بينهما من غير حرف عطف يربطهما . إما لزيادة فى المعانى وإما لاستئناف بيانى .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »

بلاغة متناهية وأسلوب لا يدانى لعجيب معانيه وترتيب ألفاظه . كلاهما فى غاية الإبداع وبكل إيجاز مع وفاء البيان .

فبلاغة هذه الآيات الوجيزة بلاغة ساحرة . هى بلاغة فى المعنى وبلاغة فى اللفظ . وبلاغة فى الفكرة وبلاغة فى التركيب وبلاغة فى الأسلوب . هى البلاغة التى لا تفصل بين العقل والذوق . ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل حقيق بالقرآن أن يتحدى بها أمراء القول والرأى فى أى عهد يكون الأدب فيه صورة للحياة وترجمة للشعور ولعبارة العقل يكون عهد ارتقاء للثقافة وبلوغها ذروتها وتمام كمالها . يتحدى بها قادة الرأى فى عهد النهوض والرقى وعصر بلوغهم أوج المجد والعظمة .

فى هذه الآيات القليلة ألفاظها تجد الفكرة الصائبة مصورة بالكلمة المناسبة . فعلى صغرها تجدها ملأى بالإرشادات للحس والعقل والهداية للروح والنفس . عبارتها جذابة بالفكرة التى حوتها والألفاظ التى اختيرت لها والصيغة

التى وضعت بها . هداية للناس بأسلوب سهل حكيم .

توجيه للبصر وللسمع وللفؤاد وللروح إلى مايرقيها جميعا إلى أوج الكمال كم يشعر المخاطب بان عبارة هذه الآيات لها سيطرة على نفسه وسلطان على عقله وشعوره غير ملحوظ . كانه كلام قفز إلى ذهنه وهو غير ملفوظ . تعليم بطريقة التصوير وارشاد لحقائق الأشياء بوحى وتنوير .

إن لآيات القرآن طابعا خاصا وأسلوبا ذاتيا ليس فى استطاعة الإنسان أن يحاكيه ، فإذا سمع عربى آية أو آيات لم يكن قد سمعها من قبل حكم بأنها لا محالة قرآن ، كلماتها وجملها سهلة على اللسان ، ولذيذة على السمع ، ومحببة للنفوس ، فسرعان ما تحفظها الصدور وتترنم بها الأفواه ، الفكرة جميلة والتعبير عنها جميل ، معان بارعة توحيها ألفاظ رائعة أو قل أن ألفاظها لباس لمعانيها ومعانيها لباس لألفاظها ، وكلاهما جليل وجميل ، آيات تسحر بسهولتها وليونتها وموسيقاها ونغمها . تسحر بمجموعها وتسحر بمفرداتها .

آيات ذات مزايا ومعان كثيرة ومنوعة فيقف السامع بازاءها حائرا مبهوتا كأنما يستمع لألحان من الموسيقى الالهية ونغم ينبعث من الأجواء العلوية فيستولى على نفسه ويمتزج بفؤاده وحسه فيكون سحرا وأى سحر ، معجزة آلهية ، فلتنظر ما يمكن بصرك أن ينظر ولتسبح بفكرك فى اللانهاية ما شاء أن يسبح .

كلمات هذه الآيات كلمات جامعة ، الكلمة الواحدة ممتلئة عدة معان ، والأيجاز هو امتلاء فى اللفظ وقوة فى الحبك وشدة فى التماسك ، وهذه الصفات كلها فى كلمات وتركيب هذه الآيات . وملاك الإيجاز غزارة المعانى ووضوحها فى الذهن وطوعية الألفاظ ومرونتها فى اللسان ، وهذه بلاغة القرآن فى كل سوره وآيه .

وأسلوب هذه الآيات ، على صغرها ، عليه مظهر الصياغة الروحية زيادة على الهندسة الكلامية ، فهذه هى البلاغة مضروب سرادقها ، مثمرة حدائقها متجلية حقائقها ، آيات تشعر بأسلوبها وفحواها بأن الوحى يمليها فجلال الكلام الالهى ظاهر عليها وفيها .

وخلاصة القول فى بلاغة هذه الآيات وفصاحتها . أن كلامها قام بحسن الدلالة وتمامها ، دلالة تبرجت فى صورة هى أبهى الصور وهى أزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفوس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، جاءت بالمعانى من الجهة التى هى أصح لتأديتها ، واختيرت لها الألفاظ التى هى أحضر بها وأكشف عنها وأتم لها ، وأحرى بأن تكسبها نبلا ، وتظهر فيها مزية ، وظاهر أنه لوحظ فى اختيارها أن حروفها أخف وامتزاجها أحسن ، وأبعد مما يكد اللسان فضلا عما فيها من النغم الموسيقى الذى يلذ السمع ومع هذا جاءت غاية فى الايجاز البالغ حد الاعجاز . آيات تسحرنا بسهولتها وسرعتها وموسيقاها الرائعة ونغمها الحلو وديباجتها الناعمة المشرقة وسمو أسلوبها ثم وقبل كل شىء وضمن كل شىء ما فيها من معان وفكر تسحرنا بمجموعها وتسحرنا بمفرداتها .

تأثير كلام القرآن فى نفوس العرب ومقابلة قريش له أولا :

لما كانت إرادته سبحانه وتعالى أن يكون القرآن هدى للناس و بينات من الهدى جعل كلامه مما يبهر العقول و يأخذ بمجامع النفوس سواء من حيث الفكر التى يتضمنها أو من حيث الأسلوب والتنسيق فكانت الآيات تعمل فى الأفئدة عمل السحر و يجد كل ذكى بليغ ومفكر ضليع فى نفسه العجز عن أن

يأتى بمثلها أو ما يدانيها ، يجدها آيات بينات بأسلوب بديع صيغت به و بنغم موسيقى جذاب و بعبارة فى غاية من الأيجاز الرائع

غير أن ما جبل عليه الناس من حيث البقاء على القديم و بخاصة فى المعتقدات والعادات من جهة ، ولما فى طبع الكثيرين من الحسد والحقد لمن يأتى بشىء عظيم أو جديد من جهة أخرى ، حدا بكثيرين من قريش أن يتصدوا و يتحدوا النبى عليه الصلاة والسلام ، وتزعمهم فى ذلك عمر ابن هجام الذى لقبه النبى صلى الله عليه وسلم « بأبى جهل » وقد كان أبو جهل هذا من أشد الحاسدين المعاندين من قريش يحض قومه على تعذيب من يسلم منهم وقد عانى المسلمون من العذاب ألوانا وأشكالا مع أنهم كانوا الصفوة الفاضلة من شبابهم ؛ ولكن كان ذلك لقلتهم أمام كثرة شيوخ قريش الذين كانوا على جهل وحماقة وقسوة مع ما كان لهم من نفوذ ومكانة ، ولقد ذهب فريق منهم بزعامة أبى جهل إلى الوليد بن المغيرة ، وهو من سادتهم وأبلغ بلغائهم النابغ النابه وصاحب الرأى فيهم ، وطلبوا إليه أن يقول كلمة فى كلام محمد تبلغ قومه انه منكر له . فقد قيل أنه استمع إلى النبى عليه السلام وهو يتلو قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر يعظكم لعلكم تذكرون » فأعجب به وأظهر الميل إليه وذلك لأنه أدرك علوية القرآن وقوة تأثيره بذكائه ودقة فهمه و بلاغته ، فوصفه بأنه كلام عجيب لا هو من الشعر ولا هو من الرجز ثم قال « ماذا أقول ووالله ان لقوله الذى يقول لحلاوة ، و أن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى وأنه ليحطم ما تحته » فلم يعجب هذا القول أبا جهل ، فقال للوليد « والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه » فأجابه « دعنى أفكر » ثم فكر الوليد

وقدر ، ولـكنه لم يفـكر إلا فى خاصة أموره ، ولم يقـدر إلا ظروفه الشخصية وحماقة مخاطبيه ، ونكص على عقبيه خوفا على مكانته فى قومه وعلى ما عنده من مال ممـدود و بنين شهود وهو يطمع فى المزيد ، فانقلب فى قوله وعن سابق رأيه ، وجاء ذكر ما قاله مع وصف حاله فى القرآن الـكريم « أنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس و بسر ، ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلى قول البشر » (س ٧٤ ، ٢١ ـ ٢٦) فعدل عن الحق بعد أن عرفه وآثر الضلال على الهدى متعمدا ، وسلك بنفسه سبيل الردى ، وزاد القوم بعـد ذلك فى الإسفاف بالنكاية بالمسلمين وصاروا يهزأون بالنبى و يسخرون منه ، وهو يحتمل أذاهم و يعجب لأمرهم ، بل و يشفق على حالهم ، قال تعالى « و إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ! ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ، أرأيت من اتخذ آلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (س ٢٥ ، ٤١ — ٤٤)

وأخيراً أوعز الوليد اليهم أن يتهموا النبى بأنه ساحر ، على اعتبار أنه ساحر ببيانه ، قال تعالى « ولما جاءهم الحـق قالوا هذا سحر وإنا به لـكافرون » (س ٤٣ ، ٣٠) وقال تعالى « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميـلا ، وذرنى والمـكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (س ٧٣ ، ١١ — ١٢) .

قال قريش إن تأثير كلام محمد قد أوجـد اضطرابا فى نفوس أهل مكة وأوقع انقساما بينهم حتى أن بعضهم قد أسلم وخرج على قومه وانضم اليه ، وهذا سحر ودبروا فـكرة سقيمة لإبعاد القبائل عنه واعتزموا إذاعتها ونشرها ، فقد

وجدوا أن النبي لم يقصر دعوته على أهل مكة . بل أنه ومن تبعه من المسلمين قد زادوا نشاطهم بغشيانهم قبائل العرب التى تفد إلى مكة فى موسم الحج بانتظارهم عند منافذها الخارجية . وبث الدعوة فيهم . و إسماعهم القرآن . فيرجع هؤلاء إلى أقوامهم تلهج ألسنتهم بالنبى عليه السلام وكلامه العذب . فدبر قريش فكرة تحذير القبائل من مقابلته والاستماع لكلامه حين مباداته الحاج . بأن يفهموهم أنهم يخشون أن النبي يسحرهم ببيانه . فيقع التفريق بينهم مثل الذى وقع فى أهل مكه ، وظنوا أن هذه الفكرة السخيفة تفض العرب عنه ، ولأجل تنفيذها اقتسموا مداخل مكة إلى إثنى عشر وجعلوا على كل مدخل طائفة منهم يطعنون فى النبي وفى كلامه . ويحذروا الواردين من الإيمان به وتصديقه . وصاروا يقولون إن القرآن أجزاء من سحر وكهانة . ومن أساطير الأولين وما شا كل ذلك ، ولكن دعايتهم هذه لم تثبت قدما أمام دعوته عليه السلام . بل أنها على العكس صارت تشوق القبائل لاستماع كلامه والإصغاء اليه . ثم حين يظهر الحق لهم فيه لا يجدون ما يمنعهم عن الإيمان به . « أ كان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » فجاءت دعاية قريش بعكس المقصود منها وكان هذا بسبب تأثير آيات القرآن الكريم فى النفوس والإعجاب بأسلوبه مما لم يسمعوا مثله من قبل .

وقد دارت على المعاندين دائرة السوء فيما بعد كما هو معروف ، وجاء ذكر أعمالهم فى سورة الحجر « وقل إنى أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون . فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون

مع الله آله آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » (س ١٥ ، ٩٠ ـ ٩٩) فانظر كيف كانت أعمالهم وبماذا أوحى الله اليه أن يقابلهم به ، بل أنهم كانوا قد تمادوا فى النكاية لما وجدوا أنهم لم ينجحوا معه بفكرتهم تلك ، ذلك أنهم قرروا قطيعة له ولمن يتصدى لحمايته قطيعة تامة فلا بيع ولا شراء ولا خلة ولا رحم ، فمن اختار محمدا قضوا عليه بالجوع والظمأ والحرمان « حتى يكون حرضا أو يكون فى الهالكين » وكتبوا صحيفة بذلك وقعها رؤساء العشائر وعلقوها على جدران الكعبة وفى ذات الآن حاصروه واتباعه . ومن كره ظلم قريش وعدوانها عليه ، ولو أنه كان على دينها وحاصروهم جميعا حتى لا يخرجوا من مكه ، وفعلا جاع كثيرون وأصابتهم أيام شداد إلى أن حصلت الهجرة إلى المدينة وكانت هجرة موفقه . « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة . ولأجر الآخرة أكبر . لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » (س ١٦ ، ٤١ — ٤٢).

ولقد زعم بعضهم أيضا أن محمدا شاعر ، وذلك لما رأوا أن كلامه لافت للنظر ومؤثر فى النفس ، وعلى حد قول الأستاذ كامل السيد شاهين أنهم وجدوا أنه قد تهيأ له عمود الشعر ، أذ لم يجدوا عندهم هذا التأثير النفسانى الذى يوجده القرآن إلا من الشعر (وأما ما عدا ذلك من الأوزان والتقفية فأمرها يسير) ، فكانت العرب ترمى إلى هذه الظاهرة القوية التى تتملك النفوس عند تلاوة القرآن والاستماع اليه وهم لم يعهدوا هذا الاستهواء إلا فى الشعر فشبهوا به القرآن لأثره النفسى الرائع وقالوا بأن محمدا شاعر وأن كلامه شعر فقال تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له أن هو إلا ذكر وقرآن كريم » . ووصف القرآن أيضا ما كان

يفعل هؤلاء « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (س ٣٧ ، ٣٥ ـ ٣٦) .

ومع كل هذا كان لأسلوب القرآن الفخم ولفظه الجزل وإعجاز تراكيبه. تأثير عظيم فى العرب ، فأسلموا واضطروا للتسليم بأنهم أمام كتاب لا عهد لهم بأسلوبه ، ولا طاقة لهم ببلاغته ، على عظم ما كانوا عليه فى هذا المضمار . وأدركوا أن القرآن أتى ببلاغة تسموا على متناول ألسنتهم . وأنه كان فوق ما تجود به قرائحهم . وقنعوا بعد إسلامهم بالاقتباس منه . وفطنوا إلى موضع العبرة فيه . والاستفادة من سمو معانيه . وعملوا على الاغتراف من منهله العذب . ومعينه الذى لا ينضب . فنشأت عن ذلك ثقافة إسلامية . تستمد نورها من مشكاة الذكر الحكيم ، ثقافة اجتماعية شاملة لم يشهد التاريخ مثلها لأمة من الأمم من قبل ولا من بعد .

عن نزول القرآن باللغة العربية

أنزل الله القرآن باللغة العربية لأنها لغة العقول والعلوم والافهام ، ولغة التفكير والتحرير والإلهام ، لغة البيان والتبيين والتثبيت والتعيين وقد بلغت الغاية من الفصاحة والبلاغة « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » ، (س ٤٣ ، ٣) .

« كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » (س ٤١ ، ٣). « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (س ١٩ ، ٩٧) « بلسان عربى مبين » (س ٢٦ ، ١٩) « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من

الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » (س ٢٠ : ١١٣) « قرآناً عربياً غير ذي عوج « (س ٣٩ : ٢٨) .

لغة فى ألفاظها امتلاء فاللفظة تغنى عن مقال فتفسح للفكر وللرأى وللعلم وللبحث أوسع مجال مما لا يوجد فى أية لغة أخرى ، وكلماتها واسعة الاشتقاق وليس لهافى ذلك ضريب ، ثم إن فيها مزية لأن الكلمة تحوى المعانى لكل صوت من أصوات حروفها ومعنى صوت الحرف ما أخرجته الطبيعة للإنسان من بدء أن حاول النطق باللسان ، فصوت الفاء مثلا يقرب معنى التفريق والانفصال كما تجده فى فصل وفرق وفسخ وفلق وفتح وفسح وكفر ونفر ونزف ونسف وهكذا لأن صوت الفاء يأتى به الريح العاصف أو القاصف الذى يفرق الأشياء ، وحرف الراء ينبىء عن الحركة كما تجده فى جرى وسار و مر وكر وفر وهكذا لأن الراء صوت للحركة الذى نسمعه فى خرير الماء . والميم تفيد الضم والجمع — وهكذا سائر الحروف — وقد لاحظ علماء اللغة العربية هذا الأثر فى حروف المعانى فقالوا إن الفاء للفصل والباء للالصاق أو المقاربة وهكذا غير أنهم لم يلاحظوا أن الصوت هو الذى يؤدى هذا المعني بالذات ، كما أنهم لم يلاحظوا أيضا أن حروف المعانى تؤدى ذات معناها وهى فى بنية الكلمة ، إلا أن ابن جني قد خطا خطوة فى هذا السبيل ببحثه فى مادة الكلمة إذ وجد أن تقليب مواضع الحروف فى الكلمة لا يغير من معنى مشترك فى الكلمات المركبة منها مثل الكلمة المركبة من الكاف واللام والميم فمنها كلم وملك ولكم وكمل ولمك ومكل فقال إن فيها جميعاً معنى القوة .

ولقد تمكنت اللغة العربية بالخواص الكثيرة فى كلماتها من التعبير الدقيق عن الفكر بحيث ينتقل المعنى المقصود من لسان المتكلم إلى ذهن المخاطب تاما

غير منقوص . وقد كثرت بذلك الألفاظ المتقاربة للمعانى المتقاربة ، كما ترى فى قط وقطع وقطف وقطب وقطر وقطش وقطم وهذا لا يوجد مثله قط فى اللغات الأخرى للتعبير عن المعانى الخاصة التى تفيدها هذه الكلمات مع اشتراكها فى معنى واحد للجميع سببه اشتراكها فى القاف والطاء مثلا .

اللغة العربية فيها من المرونة ما لا نعرف له فى لغة أخرى نظيراً ، فى الكلمات مرونة تساعدك على أن تشتق من الكلمة الواحدة عشرات من مختلف الصيغ للدلالة على مختلف المعانى . وفى الجمل مرونة تساعدك على أن تتخذ من الجملة الواحدة صوراً كثيرة بالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتغيير والتبديل تبعاً لاختلاف ما تريد الدلالة عليه من دقائق المعانى المختلفة لغة فيها سعة لا نعرف لها فى لغة أخرى ضريباً . فهى لا تضيق بمخترع جديد ولا بمعنى جديد بل كلما أحدثت لها موضوعاً أحدثت لك ما يناسبه من الأسماء والعبارات بسهولة .

ومن أجل ما فيها من المرونة والاتساع مع اختصت به من الحركات والسكنات تمتاز بأنها من أغنى اللغات مادة وأوفرها أسلوباً وأرحبها ساحة بضروب المجاز والتشبيه وسائر فنون البلاغة .

وإنك لا تجد حتى اليوم فى جميع الأرض شرقيها وغربيها لغة قائمة وسعت ما وسعته اللغة العربية من صنوف الحضارات المختلفة وتقلبات الشئون عليها والأزمان والأمكنة من نهضة وانحطاط وسلم وجهاد ومن تجمع الشعوب فى حماها من كل لون ولسان ثم لم يصبها من ذلك ما أصاب غيرها من اللغات بل خرجت من كل ما ابتليت به حية سليمة قوية فكانت بين اللغات الحية فى عصرنا الحاضر وهى من غير ريب أقدمها وجوداً وأصلبها عوداً وأمجدها

تاريخاً . مزية خص الله جل شأنه لغة العرب بهـا وقد اختارها لسـان دينه الخالد ولغة كتابه المحفوظ .

فاللغة العربية لغة الدقة والرقة والجلال والجمال . لغة العقل والعاطفة . فلا غرو أن اختارها الله لـكتاب هداية الناس وهى أصلح اللغات أن تكون لغة عالمية ولذلك انتشرت بانتشار الدين فى قليل من السنين فى نحو ثلث المعمور حين ذاك ، وصارت لغة أهل كل بلد فتحه الأسـلام لسهولتها وليونتهـا ، وأبادت لغاتهم الأصلية فبرهنت أن البقاء حقيقة للأصلح ثم كأنما هى من جهة أخرى لغةقد تواضع عليها علماءوفلاسفة من بدايتها . وجعلوا لهـا ميزات متنوعة قد ألمعنا إلى الـكثير منهاو يطول بنا الكلام لو أردنا إيفاءها حقها من البيان . ولها أيضاً مزية فى كتابتها إذ أن لكل صوت فيها حرفاً وكل حرف لايمثل إلا صوتاً واحداً خلافاً لمـا فى اللغات الأخرى .

فـكان من الحـكمة أن اختار الله إياها للقرآن الـكريم حيث لا يتأتى للغة غيرها أن تأتى بمثل ما تأتيـــه من المعانى ولا أن تقرب من فصاحتها و بلاغتها وإيجازها وطلاوتها وحلاوتها ، فكانت أحسن لغـة تختار للقرآن وأسمى من أن تشترك معهالغة أخرى . إذ أنه لا يؤمن اختلاف الأقوام فى فهم القرآن إذا نزل بأ كثر من لغة واحدة ، فلم يكن للقرآن عن العربية بديلا أو معها شريكا .

قال تعالى « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته — أعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هـدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئـك ينادون من مكان بعيد ، ولقـد آتينا موسى

الـكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب» (س ٤١ — ٤٥ و ٤٦).

وقال تعالى « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد » (س٤١ — ٥٢).

وأضف إلى ذلك أن العربية هى لغة الأمة التى أوجد الله فيها الصفات والعناصر لأن تكون بها أهلا للدعوة والتبليغ لسائر البشر فكان طبيعيا أن ينزل القرآن بلغتها .

الأمة العربية

لقد اختار الله الأمة العربية لتكون أمة الدعوة لهذا الدين فهيأها لذلك وجعلها بالإسـلام خير أمة أخرجت للناس « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر وتؤمنون بالله » . وقال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ».

قال العلامة همبولد وهو أحـد المنصفين فى مباحثه العلمية والتاريخية «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين العلوم وأسباب التمدين وبين الأمم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى العـالم تأثيرا ليس له نظير فإنهم كانوا يحملون معهم التمدين فأينما حلوا حل معهم ؛ كانوا يبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم وتهذيبهم وكان أثرهم سريع الظهور — فى وقت على حد قول دروى العالم الفرنسى كانت أوربة فيه لا ترى الضوء إلا من سم الخياط — والواقع أن هذا نتيجة لصحة إيمانهم وعقيدتهم الإسلامية وتفوق لغتهم على سائر اللغات » .

ويقول العلامة جوستاف لوبون فى كتاب حضارة العرب .

« يوجد فى العرب صفات نفسية وسجايا خلقية ثابتة ثبات الصفات التشريحية ، ومن ينعم النظر فى تطور إحدى الأمم يعجب مما يلاحظه من تجلى سجاياها الخلقية على نمط واحد فى مختلف القرون ومتتابع الأجيال ، وتنشأ عن الصفات النفسية نظم الأمة وشأنها فى العالم ، وتستتر تحت الأخلاق أى تحت المقومات التى تولد مع الإنسان وتقرر طرازه وشعوره وفعله عوامل السير اللاشعورية .

« وفى الزمن الماضى تنضج عوامل السير ومنه تتسرب إلى الحاضر ، ففى الماضى الطويل تتكون المروءة والنشاط والشجاعة وردع النفس وكبح العواطف وغير ذلك من الأخلاق والمشاعر التى يرثها أبناء جيل عن سلفهم لينقلوه إلى الجيل الذى يخلفهم ، وهذا كله شوهد فى العرب .

« كان العرب ذوى فتوة يقدرون بها على القيام بجليل الأعمال عند ما يؤمنون بمبدأه . وهم أحرار كرام شم الأنوف غضاب مقاديم .

«والعربى نشيط وصبور ومحب للحرية . والحرية أقدس ما يطمع فيه ويحرص على التمتع به . والعرب متماسكون فى أمور العز والشرف لتماثل أحوالهم ومشاعرهم ويقوم فخرهم على السيف والقرى والبلاغة ، بحد السيف يصونون حقوقهم وبالقرى يتجلى كرم أخلاقهم . وبالبلاغة يحسمون ما لا يقدر عليه السلاح من الخصام .

«العربى من قديم الزمان يرى الحرية أغلى شىء عنده وقد حافظ عليها بتوالى الأجيال ولم يقدر جميع الفاتحين من الإغريق والرومان والفرس وغيرهم من الأمم التى دوخت العالم أن تستعبدهم وكان كل قهر للعرب لا محالة زائل .

والقهر إذا ما وقع كان على أيدى أعراب آخرين ، فما كان يفل الأعراب إلا الأعراب .

وقال أيضا : كلما أمعنا فى درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل فى معرفة أهل القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأن جامعات أوروبا لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علمياً سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى وقت قصير وأنه لم يفقهم قوم فى الإبتداع الفنى .

«وتأثير العرب عظيم فى الغرب وهو فى الشرق أشد وأقوى ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ ، فالأمم التى كانت لها سيادة العالم كالأشوريين . والفرس والمصريين والأغريق والرومان قد توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك للتاريخ غير أطلال دارسة و إن عاداتها وأديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات ، والعرب وان تواروا أيضا ، لم تزل عناصر حضارتهم وان شئت فقل دياناتهم ولغتهم وفنونهم حية و ينقاد أكثر من مئة مليون شخص مقيمون فيما بين البحر المحيط الأطلسى وقلب الهند لشريعة الرسول . (الواقع أن عدد المسلمين يقرب من أربعمائة مليونا فى العالم) .

وقال ابن المقفع : إن العرب أعقل الأمم وأنى إذا فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، و يتفضل بمجهوده ، و يشارك فى ميسوره ومعسوره و يصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، و يفعله فيصير حجة ، و يحسن ما شاء فيحسن ، و يقبح ما شاء فيقبح ،

أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ودفع الحق باللسان أكبت للجنان»

الإسلام أنشأ العرب نشأة أخرى :

الواقع أن كان للإسلام والقرآن أثر كبير فى نفوس العرب بعد أن اتبعوا الهداية الإسلامية حتى ليمكنك القول أنها خلقتهم خلقا جديدا فأصبح العربى المسلم يختلف عن العربى فى الجاهلية عقيدة وعادة ونظرة إلى الحياة ، كان قبلا يعبد الحجر الذى اتخذته قبيلته إله ، يفزع اليه فى الكروب والحروب فأصبح يعبد رب العالمين الذى لا إله إلا هو خالق الخلق ومدبر الأمر كله يعبده بحق وهو لا يراه ، ويعترف له عن يقين بكمال الصفات والتنزيه عن التشبيه ، ويدعوه بأسمائه الحسنى التى تناسب إحساس الداعى وحاجته من الله والله تعالى يقول « أجيب دعوة الداعى إذا دعانى » ، ويقول « قل أدع الله أو أدع الرحمن أيما تدعو فله الأسماء الحسنى » فإذا دعاه بيارحمن فهو تنويه بحاجته لرحمته و إذا دعاه بيامعز نوه بحاجته لأعزازه و إذا دعاه يارزاق نوه بحاجته للرزق وهكذا ، حقيقة كانت أسمى الأخلاق عنده الشجاعة وقرى الضيف وأمن الجار ولكنه مع هذا كانت له عادات وأخلاق وأعمال منحطه سبق ذكرها بما جاء على لسان جعفر ابن أبى طالب فى مخاطبته لنجاشى الحبشة فصار بالإسلام يتحلى بجميع مكارم الأخلاق من شرف النفس وعزتها والعطف على الضعيف والإحسان واجتناب

الزّور والبهتان وصلة الرحم والتواد والتعاون والإخـلاص والصبر والعفو والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والبغى ، يتبع الحق و ينأى عن الباطل ولا يعمل إلا الصالحات و يتمسك بأشرف الفضائل دائم الحزم والعزم فى الابتعاد عن الرذائل ، وجد نفسه بعد أن كان عضوا فى هيئـة صغيرة وهى القبيلة قد صار عضواً فى الأمة الإسلامية والهيئة الإنسانية العالمية فتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وعاداته واتسع أفق تفكيره ومجال سعيه وعمله وشعوره فهذا خلق جديد للعرب وما كان على الله بعزيز .

أينما حل الإسلام ثبتت أصوله وأنبتت الطيبات :

قال جوستاف لو بون « إن شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلت ثبتت أصولها وأنبتت الطيبات . والفاتحون الذين قهروا العرب كثيرون ولم يدر فى خلد أحدهم إقامة حضارة مقام حضارة العرب . وقد انتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم واتخذ أكثرهم العربية لغة لهم بينما تقهقر فى الفرس والهند أمام الاسلام ديانات قديمة كثيرة . ولقد جعل الاسلام مصر الفرعونية القديمة ، التى لم يمكن للفرس والاغريق والرومان فيها سوى نفوذ قليـل ، عربية تامة العروبة ، وقد عرفت أقوام الهند والفرس ومصر وافريقية لهم سادة من الأجانب عنهم فيما مضي ولم يعرفوا لهم سادة غير مسلمين بعد أن رضوا الاسلام دينا لهم .

لقد انهار أمام الاسلام أقوى دول العالم و يصح أن نقول أنه محى حضاراتها الزائفة وأحل الحضارة الاسلامية السامية محلها ، فأحل المدنية الفاضلة محل فوضى المظالم والتعذيب ، وأحل المعتقدات الصحيحة السليمة محل الأوهام والخرافات والعقائد السقيمة ، وأحل الأخلاق والفضائل مكان الانحطاط والرذائل ، وأثار

العقول وأفسح المجال الارتقاء العلوم وفتح باب الاختراعات والفنون وكل ما فى الحضارات القائمة الآن أو التى قامت بعد الحضارة الإسلامية من محاسن فإنما هى ثمرة من ثمارها وأثر من آثار ثقافتها .

قال العلامة همبولد « ثبت عندنا بالبحث فيما صنعه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته وامتد إلى أوروبا المسيحية ، وهذا دليل على أنهم أساتذتنا ومعلمونا »

ولقد تمنى العلامة جوستاف لوبون لو أن العرب أكملوا فتح أوروبا ونشروا فضائلهم وعقائدهم فيها .

على أن التطور الحديث الذى ظهرت مبادئه يبشر برفع الغشاوة عن أعين العالم الغربى وبعودة مجد الإسلام ليعم نوره الكون وينعم الناس كافة بسلم دائم وبوحدة اجتماعية عالمية فاضلة سامية .

عن مكان بدء ظهور الإسلام وعن زمانه

لا غرو إذا كان ظهور الإسلام فى جزيرة العرب وفى الزمان الذى ظهر فيه مقصودين بالذات ، فان موقع جزيرة العرب بالنسبة للعالم يعد فى وسطه ، واتصال أهلها ببلاد الشرق والغرب وأفريقيا سهل ومستمر ويشير القرآن إلى ذلك بذكر رحلة الشتاء والصيف وغيرها .

فجزيرة العرب وبالأخص مكة كانت أحسن موقع وأفضل مركز لتنبعث منه أشعة نور الإسلام إلى سائر أنحاء العالم ولينتشر منه أهل الدعوة والهداية لدين الله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

أما الزمان فقد قلنا إن الإنسانية عند ظهور الإسلام كانت قد بلغت رشدها

الاجتماعى ووصلت إلى حد النضوج الفكرى وصارت أهلا وعلى استعداد لقبول هداية خاتم الأنبياء ، ثم بصفة خاصة كان هذا الزمان زمان فوضى واضمحلال فى أقطار العالم المتمدين وقتئذ . وكانت الحروب والغارات على أشدها بين الفرس والروم و بين البربر و بلاد الدولة الرومانية وفى اليمن بين الحبش وعمال الفرس وهكذا ، أو قل أن الفوضى كانت سائدة فى العالم ، فى الجزيرة وحول أطراف الجزيرة ، من كل جانب ، هذا من جهة السلم والأمن الاجتماعى ، كما أنه من جهة الدين والمعتقد كان الخلاف بين طوائف النصارى كبيرا ، وعقيدة الفرس أخذت فى الهرم ، واعتقاد العرب فى آلهتهم وأصنامهم كان كذلك على الرغم من مظاهر عبادتها والخضوع لها ، و باختصار القول أن وقت بزوغ نور الإسلام كان عصر فوضى وشقاء وضلال وكان بظهوره الاصلاح والسعادة وارتقاء الإنسانية إلى أوج الكمال .

ولم يكن بين العرب خلا بعض النصارى واليهود من يعبدون الله إلا نفر قليل يسمون بالحنفاء .

قال العلامة جوستاف لوبون بعد وصف أحوال ذلك الزمن « والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان » بل كان لظهور الاسلام فيها خير كذلك و بركة لما جاورها من البلدان ، فللإنسانية أيام هى ركن الانسانية لولاها ما قام لها بنيان ولا ثبت لها وجود ، أيام قد عمت بركاتها وشملت البشر جميعا خيراتها ، أيام هى ينابيع الخير والحق والعدل فى بيداء الزمان ، وهى المفخرة لأمة إن أرادت الفخار ، تلك الأيام الغر هى أيام ظهور الإسلام وانتشار الإسلام.

وخلاصة القول أن كان ذلك الزمن أنسب الأزمان ومكة خير مكان ومحمد أفضل من يختم النبوة ويحمل للعالمين أعظم رسالة بوحي منه تعالى هدى للناس أجمعين

« ان هو إلا وحي بوحي ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » ، (ص ٥٣ : ٥ — ١٢)

ما سبق الوحى

تفيد روايات المحدثين ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد حبب اليه التحنث أو التحنف في غار حراء في العام الذى جاءه فيه الوحى . والتحنث هو العزلة للتعبد ، ولكن لم يعرف نوع العبادة التى كان يقوم بها عليه السلام سوى أنه لم يكن يتعبد لآلهة العرب . وغار حراء في جبل قريب من مكة قائم بين عدة جبال . وكأنه منها ، على ما وصفه الدكتور محمد حسين هيكل باشا . «في عزلة الناسك ، عزلة عجيبة تفرد بها عما حوله وباستقامة مخروطية في انطلاقه الى السماء . استقامة تجعله أدنى الى برج شادم الانسان لغاية خاصة منه الى جبل أو كأنه مرصد لاستكشاف الحقيقة والاستضياء بنور الله » ؛ ولاغرو أن محمدا عليه السلام وهو في تلك العزلة كان يفكر فيما حوله ولم يكن حوله وأمامه الا الطبيعة الخالصة من ضوضاء الناس وأعمالهم ، وهذا الجبل عسير المرتقى كان يمر به الناس كما يقول الأستاذ عباس العقاد « عابرين غادين أو رائحين فلا يخصونه بالتفاتة فليس فيه شيء غير مألوف ، لكن محمدا عليه السلام قدره مكانا علويا فكان هو وحده الذى يأوى اليه ويسكن في الغار الذى في

قمته ، فكان فيه الرجل المتوحد فى سبيل التوحيد وأخيرا كانت ساعات مرت فيه ارتبط بهـا تاريخ أعقاب ودهور فلما انقضت مدتها لم يبق فى الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغـار أو جاهل آثار تلك الساعات التى كان يقضيها فيه بالليل والنهار . حسبك نظرة واحدة الى الجبل ومرتقاه لتحيط بتلك النوازع المرهوبة التى كانت تنهض بالرسول الى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأيام بعد أيام ، كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله فى طريق غير طريقه والى غاية لم تكن له من قبل فى حسبان فلولا لاعج من الشوق الإلهى ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف . ان اللواعج التى حملت الرسـول الى مرتقى الغـار هى السر الروحانى الذى استجاش العالم كله بعد ذلك فى حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود » .

من قمة جبل حراء هذا تلألأت مشكاة نور الإسلام وأطلق عليه المسلمون اسم جبل النور ذكرى لنور الوحى الذى هبط فيه على نبيهم عليه السلام .

أول الوحى و بعده

لقد كان صلى الله عليه وسلم يرى فى نومه رؤى يتحقق له صدقها ، وفى ليلة بينما هو نائم بالغار إذ جاءه ملك وقال له اقرأ فأجاب مأخوذا ماأنا بقارىء فأحس كأن الملك يضمه ثم يرسله و يقول له اقرأ فأجاب ثانية ما أنا بقارىء فأحس كأن الملك يضمه مرة أخرى و يقول له اقرأ ففزع وقال ماذا أقرأ فقال الملك « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقـرأ

وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » هـذا أول الوحى على محمد ، وهذه أولى أيات القرآن نزولا .

وكان عمره صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أربعـين سنة ، فلما تيقظ صار فى فزع وخشية وتساؤل ومكث برهة أصابته فيهـا رعدة الخوف ، ثم انطلق فى شعاب الجبل يسائل نفسه عن هذا الملك الذى كان يدفعه ليقرأ حتى توسط الجبل وهو فى هذه الحال من الفزع وإذ به يسمع صوتا يناديه فأخذه الروع ورفع رأسه إلى السماء فاذا الملك فى صورة رجل هو الذى يناديه فزاد به الرعب وجعل يصرف وجهه عما يرى فاذا هو يراه فى أفاق السماء أينما ولى وجهه ، ولا تنصرف الصورة من أمامه ، وأخيراً انصرفت وانطلق محمد إلى منزله ممتلئا بما أوحى اليه ، يكرر تلك الكلمات وقلبه يضطرب خوفا وهلعا ، ودخل على السيـدة خديجة يقول « زملونى ، زملونى » فزملته وهو يرتعد ، فلما ذهب عنه الروع حدثها بالذى رآه وأفضى اليها بمخاوفه فهدأته وطمأنته قائلة له « ووالله لا يخزيك الله أبدا وانك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » فاطمأن محمد وأحس بتعب جسمه وحاجته إلى النوم ، فتركته ونام ولما وحدته مستغرقا صارت هى الأخرى تفكر فيما قصه عليها ، وتستعيد تلك الكلمات التى تلاها عليها عن الملك ، وكأنما قد نقشت فى صدره ، فرأت أن تفضى بما فى نفسها إلى ابن عم لها تعرف فيه الحكمة وحسن النصيحة ، هو ورقة بن نوفل ، فانطلقت اليه وأخبرته بما رأى محمد وسمع وقصت عليه كل ما حدثها به ، وقد كان ورقة نصرانيا محبا للبحث فى الدين ويكثر من قراءة الانجيـل والتوراة فاطرق مليا ثم قال « قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وأنه لنبى هذه الأمة

فقولى له فليثبت » فعادت خديجة فوجدته ما زال نائما ولما استيقظ قصت عليه ما فعلت وطمأنته بكلام ورقة .

وقابل محمد بعد ذلك ورقة عند الكعبة فقص عليه محمد أمره فقال له «والذى نفسى بيده أنك لنبى هذه الأمة واقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لا نصرن الله نصرا يعلمه » .

ولقد صار محمد يفكر فى أمر دينه وقيل أن سورة المدثر قد نزلت عليه وهو فى هداءة نومه ذاك وأن خديجة بعد عودتها من مقابلة ورقة الفته نائما فحدقت فيه و إذا به اهتز وثقل تنفسه و بلل العرق جبينه ونهض ليستمع إلى الملك يوحى اليه « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » ولما رأته خديجة على هذه الحال تقدمت اليه فى ضراعة أن يعود إلى فراشه فيستريح وأن ينام ، فكان جوابه لها أن عهد النوم والراحة قد انقضى فقد أمرنى الملك أن أنذر الناس وأدعوهم إلى الله و إلى عبادته ، فمن ذا ادعوا ، ومن ذا يستجيب إلى ، فأخذت خديجة تهون عليه الأمر وتثبته ولكنه انتظر هداية الوحى اياه فى أمره وانارة سبيله فاذا الوحى يفتر والملك لا ينزل عليه ، وابث كذلك مدة نحو ثلاث سنين كان فى أثنائها ينظر فى الوجود ويتأمل ويفكر عملا بقوله تعالى « إقرأ باسم ربك الذى خلق » وكان يعاود الانقطاع فى جبل حراء ذلك الجبل الذى شهد رياضته الروحية العظيمة التى هداه الله اليها تمهيدا واعدادا لتلقى الرسالة ولما طال زمن فتور الوحى بلغ به الحزن أشده فكان يرتفع بكان نفسه ابتغاء وجه ربه و يسأله عودة نزول الوحى ، حتى ظن أن الله قلاه بعد أن اصطفاه ، إلى أن جاءه الوحى بعد هذا الفتور ، وقيل

بنزول سورة المدثر حينذاك ، لا كما قيل أولا ، فدبت فيه روح ، النشاط وصدق العزيمة وأخذ يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد خالق الخلق ومدبر الأمر كله وصارت الآيات والسور تتوالى فى النزول ، غير أنه لاقى فى سبيل الدعوة من أذى قريش وغيرهم ما لاقى فلم يأل جهدا فى الأمر متحصنا بالصبر ومتمسكا بقوة الحق ، واضطر بعد أكثر من عشر سنين على هذه الحال للهجرة إلى المدينة فكانت هجرة موفقة واستمر فى الدعوة والجهاد حتى تمت نعمة ربك على الخلق وكانت معجزته عليه السلام هى هذا القرآن الكريم وهو أكبر معجزة ثابتة الوجود دائمة الخلود هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان .

تقريب أمر الوحى إلى الفهم

الوحى فى اللغة قد يطلق على الإشارة والإيماء ومنه قوله تعالى « فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا » وقوله « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » وقوله « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه » ، و يطلق على الإلهام الذى هو وجدان به تستقيظ النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى فهو أخفى من الإيماء ومنه قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » وقوله « وأوحينا إلى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى » وقد يكون وصفا لغريزة ثابتة كما فى قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا

ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

أما الوحى للأنبياء فهو ما يلقيه الله إليهم من العلم الضرورى لهداية الخلق وليس بالأمر المشاهد الحسي بل أمر روحى يعد الله له النبي فيدركه ففرق بينه و بين الإلهام قال تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » وقال المرحوم الشيخ محمد عبده بأن الوحى عرفان يجده النبي من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة و يكون بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت قال تعالى لنبيه الكريم « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » وقال « اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين » وقال «وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه إنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

وقد وردت فى القرآن آيات كثيرة بذكر الوحى المصطفى ولسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهى بتنوع عباراتها ومعانيها تقرب أمر الوحى للذهن فالمثل الذى انتزعه القرآن من عالم الحيوان بقوله « وأوحى ربك إلى النحل » إلى آخر الآية يفيد أنه إذا كان أمر وحى الخالق إلى الحيوان بداعى الغريزة ظاهراً محسوساً فوحيه تعالى إلى النوع الإنسانى بما فيه مصلحة الإنسانية أولى ثم إن فى بيان درجات الوحى من إيماء إلى إلهام الى درجته العليا الخاصة بالأنبياء عليهم السلام مما ينير السبيل إلى فهمه .

ونرى أن نذكر هنا ، كلاما للشيخ محمد مصطفى المراغى رحمه الله فى مثل هذا الصدد قال « إن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون

نصير الدين وسيقرب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضا مبهما وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل .. فالكهرباء ومانشأ عنها من المخترعات قربت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون وأعان على فهم تجرد الروح و إمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طى الابعاد » .

والذى نفهمه من هذا أنه يرى أن الروح قوة سيكشفها العلم بتقدمه ولهذه المناسبة نقول إن الوحى « نزل به الروح الأمين » فهو « قوة من ذى العرش متين » ، ولا يحتمل اتصال هذه القوة إلا من هيأه الله لها وقدره عليها فتتفرغ لها جميع قوى الإدراك عنده فلا يشتغل فؤاده الا بها . ولا يرى بصره غيرها ولا تسمع اذنه سواها فتوحى له هذه الروح ما توحى ، فما يكذب الفؤاد ما يرى . ويرى من آيات ربه الكبرى ، وقد تتحول هذه القوة الى مادة أو أو شبه مادة فيرى جسما لها . وهذا يتفق مع الوصف الذى ذكره النبى عليه السلام لحالته ورؤيته للملك عند نزول الآيات الأولى ومن قوله تعالى « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » والبرهان هو النبى عليه السلام ، هو برهان بسيرته العملية و برهان بقوته العامية فى بيان الشرائع والحكم الاجتماعية والأدبية والسياسية فلا غرو أن يسمى برهانا ، وأما النور المبين فهو القرآن الكريم الذى أوحاه اليه كالنور بين فى نفسه ، مبين لكل ما أنزل لبيانه .

ولا يخفى أن الناس يختلفون فى قدرة التفكير والابصار والسمع وهكذا فقد يكون في قدرة شخص أن يري شيئا على بعد لا يستطيع غيره أن يراه

إطلاقا وكذلك قد تسمع صوتا من بعد لا يستطيع سواك أن يسمعه وهكذا . وكذلك قوة الفؤاد تختلف عند الناس فأقواها وأقدرها ما فى استطاعة صاحبها ادراك الوحى الذى يخصه الله به ، وقد يمنح الله النبى قدرة على رؤيته وسمعه فى وقت وحيه له ، قدرة غير العادية ، كما أن فيما يراه النائم فى الرؤى ما يقرب كذلك فهمه ولو أن حقيقة النوم وحقيقة الأحلام لم تتبين للآن ولقد وصف النبى الوحى بما يمكن للإنسان فهمه ولكن ليس من رأى كمن سمع . وهذا ما نظنه أقرب الى الحقيقة والله أعلم .

جعل الله هذه الرسالة المحمدية هدى للناس أجمعين — آمين

اعتراف بالفضل لذويه

ولا يفوتنى فى الختام أن أقر بالفضل لمن اقتبست من كلامهم ، واستنرت بأفكارهم مما كتبوه فى مناسبات أخرى ورأيت النقل منه حيثما يقتضيه المقام فى هذا المقال إذ لم يكن غرضى سوى نفع إخوانى المسلمين بما توحيه وتحويه هذه الآيات الكريمة .

ولم يسمح الأسلوب الذى اتبعته فى الكتابة فى كثير من الحالات أن أذكر اسم صاحب المقتبس أو المرجع الذى عولت عليه غير أن الفضل الأول كان لتفسير المنار ثم المقالات القيمة التى نشرتها مجلة الأزهر ومجلة الرسالة وما من شك أن أصحابها الفضلاء فى غنى عن ذكر أسمائهم ويكفيهم فخراً أنهم طليعة نهضة مباركة فى الدين والعلم والأدب ارتفعت بأيديهم مصابيحها فكانت حسنة من حسنات الدهر هم مفاتيحها جزاهم الله عن الإسلام والإنسانية خير الجزاء .

رجـــــاء

أرجو من حضرات القراء الكرام إذا بدت لأحدهم فكرة ويرى إضافتها إلى ما ورد فى هذه الرسالة أن يتفضل بارسالها إلى لتأخذ مكانها فى الطبعة التالية إن شاء الله .